الأمير فخر الدين بن الشيخ
فى محكمة التاريخ

د ./ رأفت عبد الحميد

كلية الآداب – جامعة عين شمس

فى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، أقام المؤرخ جمال الدين بن واصل دعوى فى محكمة التاريخ ، يتهم فيها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائد الجيش المصرى ، أتابك أو مقدم العسكر ، بتعبير ذلك الزمان ، بالانسحاب مع قواته العسكرية ، أو الفرار بهذه القوات من ميدان المعركة وعدم التصدى للجيش الصليبى الذى يقوده القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، مما أدى إلى استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط دون عناء ، وامتلاكهم لها "صفواً عفواً" ، وما تبع ذلك من النكبات التى حلت بمصر قبل أن ينتهى الحال بالحملة وقائدها إلى الفشل والإذلال ، واتسعت قائمة الاتهام لتشمل التصريح بـ "همة الأمير التى ترقى إلى الملك" ، والتلميح بذلك إلى الرغبة الكامنة لديه فى القفز على عرش السلطنة الأيوبية والملك الصالح نجم الدين أيوب يلملم ليالى العمر المعدودة الباقية له ليرحل عن دنيا الناس" والسعى إلى تحقيق هذا الطموح قبل أن يصل الوريث الشرعى ، المعظم تورانشاه ، إلى مصر ليتسلم مقاليد الأمور ويتصدر دست السلطنة .

وعلى درب ابن واصل سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون ، وجلهم ينقل عن سلفهم هذا ، ويكاد بعضهم يردد عبارات ابن واصل بنصها ، من هؤلاء المؤرخين القدامى "ابن أيبك الدوادارى ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى ، والمقريزى الذى كان أشد هؤلاء جميعا قسوة على ابن الشيخ إلى درجة تعيد إلى الأذهان صحيفة اتهامات ابن واصل ، كما لو أن المقريزى كان يقرأ منها ويخط بيمينه ! ولم يسلم الأمير فخر الدين كذلك من ملاحقة المؤرخين المحدثين له بهذه الاتهامات خلال تناولهم لأحداث الحملة الصليبية السابعة ، جريا على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة ، دون التوقف طويلا أو حتى قليلا عند هذه الأقوال ومناقشتها وإخضاعها لأصول النقد التاريخى ومنهج البحث العلمى ، حتى تتضح الحقائق ، أو على الأقل يتبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر ، او بتعبير أدق ، ما أذاعه ابن واصل وتابعه فيه دون مناقشة من جاءوا بعده ، خاصة وأن هذه الاتهامات

تندرج كلها تحت "الخيانة العظمى" والإخلال بواجبات "الشرف العسكرى" ، وهـــو مـــا يستوجب فى أى ناحية من نواحيه عقوبة الإعدام .

ومع الإقرار الكامل والاعتراف بالأهمية الكبيرة للكتاب جليل القدر عظيـــم النفـــع الذى خلفه لنا المؤرخ ابن واصل تحت عنوان "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لما احتواه من مادة علمية ضافية وتفاصيل دقيقة وآراء سديدة فى كثير مـــن الأحيـــان ، ســـاعده فى الوصول إليها قربه من الأحداث ووقوفه على مجريات الأمور ومعايشته إياها ، إلا أن حديثه عن الأمير فخر الدين وعلاقته بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشـــاه ، استوقفنى أمامه عدد سنين أحاوره على أجد بين ثنايا أقواله شيئا يميط اللثام عـــن حقيقـــة القضية ، خاصة وأن ابن واصل كان لصيقا ببعض صناع القرار فى هذه الأحداث بـــالذات ، مشاركا لهم حتى فى خواطرهم ، مشيرا عليهم بما يفعلون أحيانا ، كما يخبرنا بنفســـه عـــن ذلك فى هذا الكتاب .

والبحث فى مثل هذه القضايا يعد أمرا شائكا تعتوره الصعاب من كل ناحيـــة ، فى ضوء تطابق المصادر التاريخية فى رواياتها ، ونقلها عن بعضها البعض ، مع الإشارة إلى ذلـك حينا ، والسكوت عن ذلك أيضا أحايين كثيرة ، وتلك مشكلة قائمة تواجه البـــاحثين فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى أو العالم البـــيزنطى علـــى السواء . ومع إدراكى الكامل لمثل هذه الصعوبة منذ البداية ، إلا أننى آثرت تحريك الدعـوى فى هذه القضية من جديد أمام محكمة التاريخ ، معتمدا فى ذلك على نفس صحيفة الاتهـــام الأساسية التى قدمها ابن واصل ، وأقوال الشهود من التابعين وتابعيهم ، مناقشا لما جـــاء فى تلك الدعوى وهذه الأقوال ، محللا وناقدا ، مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها ، وطبـــائع الأشخاص المشاركين فيها ، وسيرهم الذاتية ، ثم قدمت فى النهاية لمحكمة التـــاريخ وثيقـــة الشاهد العدل الرئيسى فى هذه القضية كما خطها هو نفسه بقلمه !

ومن الجدير بالذكر أن عائلة شيخ الشيوخ قد عملت كلها فى خدمة سلاطين الدولـة الأيوبية منذ عهد الناصر صلاح الدين الذى عهد إلى صدر الدين محمـــد بتـــولى مشـــيخة الصوفية فى مصر ، بعد توليه إياها بدمشق فترة من الزمن خلفا لأبيه عماد الدين عمر بـــن حمويه[1] ، وكلفه أيضا بالإشراف على المدرسة الصلاحية لما لمسه فيه من سعة العلم وعمـــق

---

[1] – يعد عماد الدين عمر بن حمويه المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، وكان نور الدين محمود قد ولاه مشيخة "خانقاه" دمشق ، فاكتســـب بذلك لقب "شيخ الشيوخ" ، وهو اللقب الذى ذاعت به شهرة هذه الأسره حيث تولى أفرادها جميعا هذه الوظيفة باســـتثناء فخـــر

المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهذه أمور اجتمعت كلها فى أسرة "الشيخ" دون استثناء ، وهذا هو الأمر الذى حدا بالأيوبيين إلى تقريبهم إليهم والاعتماد عليهم فى معظم شئون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بنى أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون أيضا بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء ، ولم تحل الجهود الضخمة التى بذلوها للتصدى للصليبيين دون الاهتمام الكبير أيضا بالنواحى العلمية ، بل كان من بين هؤلاء الملوك من تعمق فى الأمور الفقهية والمسائل الكلامية وقرض الشعر والتأريخ .

وقد ترك صدر الدين محمد عند وفاته أربعة أبناء هم عماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن ، وفخر الدين يوسف ، وقد ذاع صيتهم جميعا أيام الملك الكامل وابنه الصالح[٢]، ويقول ابن واصل إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل ، ونالوا فى زمانه مكانة مرموقة حيث كان يعد أخا لهم من الرضاعة عن طريق أمهم ابنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون[٣] .

ولما كان الملك الكامل "فاضلا عالما شهما مهيباً عاقلا محبا للعلماء ، وللحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف[٤] فقد اصطفى لنفسه عماد الدين عمر بن صدر الدين لسعة علمه وتنوع ثقافته حتى جمع له ، على حد قول المقريزى[٥] بين رياسة العلم والقلم سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه . لقد كان الرجل ، كما يحدث عنه ابن واصل[٦] تام العقل والكرم والبأس والرئاسة ، مقصدا لمن إليه ... وكان معدم المثل فى وقته ، وإلى جانب هذا كله كان فارسا ماهرا ، فحاز بذلك "فضيلتى السيف والقلم"[٧] . وقد أهلته مواهبه هذه للمشاركة بفعالية فى ترتيب أوراق البيت الأيوبى بعد وفاة الملك الكامل ، فسعى جاهدا للحفاظ على أن تظل مصر من نصيب ولده العادل الثانى ، وتصدى بكل القوة لأطماع الناصر داود فى مصر ، وحاول من بعد الحد من نفوذ الجواد

الدين يوسف . أنظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين، ص ١٢٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٣ - ٣٤ ، راجع حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى ، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٨ .

[٢] - أبو شامة ، الذيل ص ١٢٥ .

[٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٥ ص ١٧٠ ؛ المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٤ .

[٤] - أبو المحاسن النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص ٢٢٨ - ٢٣٦ .

[٥] - الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

[٦] - مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

[٧] - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٦١ .

مظفر الدين يونس حفيد العادل الكبير أبى بكر فى دمشق ، مما دفع هذا الجواد إلى كراهيته حتى شاع أنه استأجر جماعة من الباطنية فقتلوه[٨] .

وتولى كمال الدين أحمد شأن أبيه صدر الدين وأخيه عماد الدين مشيخة الصوفية لعلمه وصلاحه وتقواه ، وعهد إليه بنيابة حران والجزيرة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بعد أن أخذها الملك الكامل من أخيه الأشرف موسى بمقتضى اتفاقية "تل العجول" التى تمت بينهما فى العام السابق ، ولم يلبث أن جعله وزيرا فى مصر فى أخريات العام نفسه (٦٢٧هـ / (١٢٢٩م)[٩] . وازدادت مكانة كمال الدين بن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، حيث ولاه قيادة القوات المصرية المتجهة لمحاربة الناصر داود عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ، وعهد إليه بقيادة الجيش المصرى المقيم بغزة بين عامى ٦٣٩ - ٦٤٠هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٢م[١٠] .

وعلى الدرب نفسه سار الأخ الثالث معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، فتولى مشيخة الصوفية ، وإن كان قد تميز عن اخوته بفصاحة اللسان ومقدرة بلاغية ، فأوفده الملك الكامل إلى بغداد لتقديم العزاء فى وفاة الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله ، والتهنئة بخلافة المستنصر بالله سنة ٦٣٢هـ / ١٢٢٦م ، فألقى خطبة رائعة بين يدى الوزير مؤيد الدين ابن محمد القمى ، أورد لنا المقريزى[١١] جزءا منها ، وفى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م عهد إليه الكامل بتدبير أمور السلطنة وسماه نائب الوزارة ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين على مصر استوزر معين الدين ، ثم عقد له إمارة الجيش المتجه إلى دمشق لإخراج الصالح إسماعيل منها ، بعد أن استبد بالأمر هناك وعاث أهلوها من عسفه وقساواته[١٢] ، وأمر قواته من الخوارزمية أن تعمل تحت إمرته ، ورسم له أن يكون نائبه بدمشق ، وحكمه فيها ، وأقامه مقام نفسه[١٣] . وتروى لنا المصادر[١٤] رواية طريفة تدل على ذكاء معين الدين

---

[٨] - لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث كلها ودور عماد الدين عمر فيها ، راجع ابن واصل ، مفرج الكروب حـ٥ ص٢٠٠ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان حـ٨ ص ٧٢١ - ٧٢٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر حـ٣ ص ١٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك حـ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، الخطط حـ٢ ص ٣٣ - ٣٤ .

[٩] - المقريزى ، السلوك حـ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

[١٠] - ابن واصل ، مفرج الكروب حـ٥ ص ٣٠١ ؛ المقريزى ، السلوك حـ١ ص٣٠٩ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، وهو الجزء السابع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى .

[١١] - السلوك حـ١ ص ٢٢١ ، وكان من بين ما جاء فيها : "ويوالى شكر الله تعالى على إماطة لثام العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح شمس الهدى شفق الاشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخر والأول" .

[١٢] - أبو شامة ، الذيل ص ١٧٦ .

[١٣] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ .

بن شيخ الشيوخ وفراسته وسرعة بديهته ، فتخيرنا أنه لما اشتد الحصار على دمشق ، وضيق معين الدين بقواته على الصالح إسماعيل ، أرسل هذا إلى معين الدين سجادة وعكازا وإبريقا ، وهى من الأدوات الخاصة بالزهد والانقطاع للعبادة ، وهذا الأمر يحمل فى ذاته سخرية من معين الدين وإشارة إلى أنه باعتباره شيخا للصوفية فلا يصلح لقيادة الجيوش ، وتمثل ذلك فى قول الصالح إسماعيل له "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك" ! ، فلما تلقى عماد الدين هذه الأدوات والرسالة ، بعث من فوره إلى الصالح "جنكا" وزمرا وهما من أدوات الغناء والرقص ، كما بعث له "غلالة" حرير أحمر وأصفر ، وهى قميص يرتديه النساء ، وقال له : "السجادة وما معها تصلح لى ، وأنت أولى بهذا من الملك" ! وكانت هذه سخرية لاذعة تشير إلى أن الصالح إسماعيل لا يصلح للسياسة والملك بقدر ما يصلح للهو والطرب . وقد شدد معين الدين بن شيخ الشيوخ الحصار على دمشق حتى أضطر الصالح إسماعيل إلى الهروب منها ، لتصبح بذلك خاضعة لسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

وإذا كان الاخوة الثلاثة هؤلاء من أبناء شيخ الشيوخ قد تولوا مشيخة الصوفية ورثة لأبيهم صدر الدين ، ولما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه فى الدين والعلم بالأصول ، إلى جانب الاشتغال بأمور السياسة والحرب للثقة المطلقة التى أولاها إياهم سلاطين بنى أيوب ، فإن الأخ الرابع فخر الدين يوسف ، رغم ما اجتمع لديه من كل ما توافر لاخوته ، إلا أن الملك الكامل رأى فيه بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة ، أو كما وصفه العماد الحنبلى[١٥] "محتشما سيدا معظما ذا عقل ورأى ودهاء وشجاعة وكرم" ، هذا إلى أن فخر الدين يوسف كان متضلعا فى كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية ، ولم يكن ابن واصل مبالغا عندما خصه دون اخوته بقوله "كان فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن[١٦] ، وكان من نتيجة هذا كله أن الكامل أراد أن يفيد من ذكاء هذا الرجل ، فلم يدعه يحذو حذو اخوته وأبيه فى تولى مشيخة الصوفية ، وإنما "جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء[١٧] ، وأصبح من أخص ندمائه ، وهذا يدل على المكانة

---

[١١] – سبط بن الجوزى مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٢ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ – ٣٥٥ وحاشية ١ ص ٣٥٥ .

[١٥] – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،جـ٥ ،ص ٢٣٩ .

[١٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ١٦٩ .

[١٧] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٤ . والشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم . راجع المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص ٢٥١ ، حاشية ١ ، أما القباء فهو عبارة عن قباءين أحدهما تترى ويلبس أولا والآخر إسلامى ويلبس فوقه ، والقباء زى أرباب السيوف . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٤ ص ٣٩ – ٤٠ .

المرموقة التى احتلها الأمير فخر الدين لدى الملك الكامل ، وتمثل ذلك فى الكثير من المـــهام السياسية والعسكرية والدبلوماسية التى كلفه القيام بها على امتداد عهده فى السلطنة .

ففى عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م وقعت الوحشة بين الكامل وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب دمشق ، وكان ذلك بسبب رفض الناصر التنازل لعمه عن حصـــن "الشوبك" الذى كان الكامل يعتبره قلعة متقدمة لمقاومة الصليبيين فى الشام وحماية مصر من هجماتهم ، هذا إضافة إلى ما بلغ الكامل عن ظلم الناصر لأهالى دمشق ، وانصرافـــه عـــن الاهتمام بأمور الدولة إلى اللهو[١٨] ، ومن ثم عزم الكامل على الخروج بنفسه لتأديب الناصر ، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده ، وأركبه بشعار الســـلطنة ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة[١٩] . ولا شـــك أن هذا يفصح عن الثقة التى كان يضعها الكامل فى فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . ولم تكـــد تمضى على ذلك سنوات قلائل حتى كان فخر الدين فى مكة ســـنة ٦٢٩هـــ / ١٢٣١م لإقرار الأمور فيها بعد وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهو ابن الملك الكامل ، وذلـــك فى عام ٦٢٦هـــ / ١٢٢٨م ، واستبداد راجح بن قتادة بالأمور هناك[٢٠] .

غير أن الدور الأساسى الذى اضطلع به الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشـــيوخ فى عهد الملك الكامل ، يتمثل فى المهمة الدبلوماسية التى قام بها مفاوضا مـــع الإمـــبراطور فردريك الثانى Fredrick II ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بعـــد أن أدت الظروف السياسية التى تسبب فيها المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موســـى صاحب خلاط ، بطمعهما فى مُلك مصر ، ولجوء ملوك البيـــت الأيـــوبى فى الشـــام إلى الاستعانة بقوى خارجية ضد بعضهم بعضا ، مثل الخوارزمية والصليبيين ، أو قوى داخليـــة مثل الباطنية الأشد فتكا ، ولتحقيق طموحاتهم الشخصية ، أدت إلى أن يوفد سلطان مصـــر الملك الكامل ، الأمير فخر الدين إلى صقلية سنة ٦٢٤هـــ / ١٢٢٦ - ١٢٢٧م لمقابلـــة فردريك الثانى ودعوته للقدوم إلى الشرق ، ليشغل بمقدمه أخويه ويصرفهما عن أطماعهما[٢١]

---

[١٨] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـــ٤ ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـــ١، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

[١٩] - المقريزى ، السلوك، جـــ١، ص ٢٢٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٥ .

[٢٠] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٠٦ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى، جـــ٤ ،ص٢٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط،جـــ٢، ص ٣٤ .

[٢١] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـــ٤، ص ٢٠٦ ، وقد ناقشنا هذه المسألة وما ترتب عليها تفصيلا فى الفصل السابق من هذا الكتاب.

وقد جمعت بين الرجلين ، الإمبراطور والأمير ، محبتهما للمعرفة وشغفهما بمختلف العلوم ، ودارت بينهما مناقشات طويلة فى كثير من المسائل العلمية بعيدا عن المفاوضات السياسية ، ولعل هذا يوضحه وصف المؤرخ ابن واصل للرجلين ، إذ يكاد يستخدم الكلمات نفسها فى حديثه عن كل منهما ، فيقول عن فردريك الثانى : "وكان الإمبراطور – من بين ملوك الفرنج – فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب" ، ويقول عن الأمير :"وكان فخر الدين فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن"[٢٢] ، ولا شك أن هذه الصفات المشتركة والمتشابهة إلى حد بعيد جدا قد قربت بين الرجلين تماما ، وازدادت هذه العلاقات توطدا بعد قدوم فردريك الثانى إلى الشام فى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، وتولى الأمير فخر الدين مسألة التفاوض معه نيابة عن الملك الكامل ، حتى تم التوصل فى النهاية إلى عقد صلح يافا بين الطرفين فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ[٢٣] .

وقد أنعم الإمبراطور على الأمير فخر الدين بمرتبة "فارس" ومنحه امتياز وضع الرنك الإمبراطورى على رايته ودرعه بعد موافقة السلطان الكامل على ذلك[٢٤] ، واستمرت هذه العلاقات الودية والاحترام المتبادل قائما بين الإمبراطور والأمير بعد عودة فردريك الثانى إلى أوروبا، فقد كتب الأخير رسائل إلى الملك الكامل وهو بـ "حران" سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، ومثلها إلى الأمير فخر الدين ، يطلعه فيها على الأحوال السياسية التى يمر بها ، وكذلك المؤامرات التى حاكتها البابوية ضده ، والانتصارات التى تحققت له على الأسقف الرومانى وأعوانه ، وهذا كله يشير إلى مدى الثقة التى يوليها فردريك الثانى لفخر الدين ، وعلو المكانة التى احتلها الأمير الدى الإمبراطور، وكذا المرتبة التى يضع فيها الإمبراطور الملك الكامل . ومن الرسالتين اللتين احتفظت لنا المصادر[٢٥] بنصيهما ، ندرك كل هذه الأمور ، حيث يتضح من خلالهما كما لو كان الإمبراطور يخاطب شخصا معنيا بالأمور السياسية

---

[٢٢] – يقول ابن واصل "وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج ، فاضلا ، محبا للحكمة والمنطق والطب جـ٤ ص ٢٣٤ ، جـ٥ ص١٦٩، وقارن Kantrowicz., Fredrick the Second, p. 185 وفى القصة الرائعة التى نسجها المؤلف الأمريكى جوزيف جاى ديس Joseph Jay Deiss تحت عنوان The Great Infidel معتبرا إياها مذكرات للامبراطور فردريك الثانى كتبها بالعربية ، يقول الامبراطور محدثا عن الأمير فخر الدين وكان هذا الرجل لطيفا ... على علم واسع بالفلسفة والشعر ، وعلى دراية بالأسلحة والخيل والتصقر (أى الصيد بالصقور) ، لقد كان فى الواقع خير ممثل لمليكه" . راجع الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد نجيب هاشم لهذه القصة تحت عنوان "الزنديق الأعظم" ص ٣٥٠ – ٣٥١ .

[٢٣] – راجع الفصل السابق .

[٢٤] – جوانفيل ، القديس لويس ، ترجمة حسن حبشى، ص ١٠٨ ؛ راجع أيضا :

Runciman, *A history of the Crusades*, vol. III, p. 185 .

Setton, *A history of the Crusades*, vol. II p. 449 .

[٢٥] – الحموى ، التاريخ المنصورى ، تحقيق أبو العيد دودو ص ١٨٩ – ١٩٤ .

الداخلية للإمبراطورية ، أو بتعبير آخر ، واحدا من الذين يناط بهم المسئولية فى تلك البلاد ، وتفصح عن ذلك - على سبيل المثال - عبارة وردت فى صدر الرسالة الأولى تقول : "... وبعد ، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره حسبما شرحنا بله ..." ، هذا بالطبع بعد الديباجة التى تملئ بكل العبارات المفعمة بالمودة والصداقة ، بينما يختتم الرسالة الأولى بالتأكيد على مواصلة ودوام المراسلات بينهما ، يقول : "... وبعد ، فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته" . أما الرسالة الثانية فهى تتناول فى جملتها جهود الإمبراطور فى التصدى لمحاولات البابوية المستمرة للنيل من الإمبراطورية . وقد فصلنا ذلك كله فى الفصل السابق .

وليس هنا معنى للقول فى حذلقة - كما قد يذهب البعض - إلى أن الإمبراطور كان يشير من طرف خفى فى رسائله إلى قوته المتزايدة وانتصاراته العديدة على البابوية ، حتى يدخل فى روع المسلمين المهابة والحذر من الإقدام على نقض شروط صلح يافا ، فهذا التأويل مردود عليه بأن المسلمين لم يقدموا مطلقا على نقض عهد قطعوه على أنفسهم ، أو التنكر لصلح أو اتفاقية وقعوا عليها مع الصليبيين منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين حتى دالت دولة اللاتين بالشام ، هذا بالإضافة إلى أن فردريك منذ عودته إلى أوروبا حتى وفاته عام ١٢٥٠م ، كان همه كله موجها لتدعيم سلطان دولته وإقرار حقوقه الإمبراطورية فى إيطاليا وصقلية ضد السياسة البابوية العدائية السافرة ضده ، والتى تحولت إلى عداء شخصى فى تلك المرحلة[٢٦] ، كما أن فردريك كان حريصا على ابقاء هذه الصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، والأمير فخر الدين ، ولذلك لم يتوان مطلقا عن إخبار سلطان مصر بأنباء الاستعدادات التى كانت تجرى فى أوروبا لخروج حملة صليبية جديدة هدفها مصر ، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية السابعة

وإذا كان فخر الدين بن شيخ قد حاز ثقة الإمبراطور فردريك الثانى وإعجابه ، فإنه قد نال قبلها وأكثر منها لدى الملك الكامل الذى توسم فيه من البداية مظاهر الذكاء والفراسة وسعة الأفق، ومن ثم حرص على أن يظل قريبا منه عونا له فى تصريف أمور دولته السياسية والعسكرية على السواء ، إضافة إلى تقديره لعلمه وسعة ثقافته ، خاصة وأن الكامل كان يجل العلماء ويترلهم مُترلا كريما ، وقد لخص المقريزى[٢٧] ذلك كله فى عبارة

---

[٢٦] - رأفت عبد الحميد ، السر البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ص ٢١٣ - ٢١٧.

[٢٧] - الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

مختصرة وإن كانت فى غاية البلاغة ، قال فيها : "ومازال (فخر الدين بن شـــيخ الشـــيوخ) مكرما محترما حتى مات الملك الكامل" .

ويبدو أن القلاقل والاضطرابات التى حاقت بالدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكـــامل بسبب النزاع الذى نشب بين أفراد البيت الأيوبى ، قد شملت أيضا بتقلباتها الأمير فخر الدين ، فتقلبت به الأحوال خلال السنوات التالية مباشرة لرحيل الكامل ، فقد أقدم ابنه وخليفتـــه فى مصر ، العادل الصغير ، على سجن فخر الدين نتيجة وشـــايات ســـاقها النـــاصر داود صاحب الكرك وابن عم العادل، وتشير المصادر إلى أن هذه الوساوس التى همس بها النـــاصر فى أذن العادل لم تكن قاصرة على فخر الدين فقط ن بل شملت أخاه عماد الدين أيضـــا[٢٨] ، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى ما أدركه الناصر من أن عائلة شيخ الشـــيوخ بأبنائـــها الأربعة هى التى قامت عليها دولة الكامل ، وأنهم يمثلون خاصة مستشاريه السياسيين وقواده العسكريين ، كما أنه لم يغفر لأولاد الشيخ حرمانه من دمشق التى كانت لأبيـــه المعظـــم عيسى ، واعطائها للجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الكبير ، الـــذى كـــان الكامل قد جاء به إلى مصر وتعهده بالرعاية ، وَعدَ الناصر قرار العادل الثانى بالإبقاء عليه فى الكرك ، وعدم تمكينه من دمشق والإنعام بها على الجواد أمرا زينه أولاد شـــيخ الشـــيوخ لسلطان مصر الجديد ، خاصة وأنهم كانوا - كما يصفهم ابن واصل[٢٩] آنـــذاك، "أربـــاب الدولة المشار إليهم" وأنهم يمثلون "شوكة قوية" .

ولم يطل مُكث العادل الصغير على عرش السلطنة ، إذ سرعان ما نحاه أخوه الصـــالح نجم الدين أيوب وسجنه ، وأصبحت بيده مقاليد الأمور فى مصر سنة ٦٣٧هـــ / ١٢٣٩ ، وما أن تم له ذلك حتى ولى وجهه شطر أولاد الشيخ ؛ فاستوزر معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة - على حد تعبير ابن واصل[٣٠] وحفظ لكمـــال الدين أحمد منزلته ومكانته التى كانت له أيام الملك الكامل ، ثم لم يلبث السلطان أن أفـــرج عن الأمير فخر الدين وأخرجه من سجن القلعة فى سنة ٦٣٨هـــ / ١٢٤٠م .

---

[٢٨] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـــ٨ ص ٧٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـــ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابـــن أيبـــك ، الـــدر المطلوب ص ٣٢٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـــ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٢٣ ؛ الحنبلى ، شـــفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٣٤٧ .

[٢٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـــ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ .

[٣٠] - مفرج الكروب جـــ٥ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقد أسلفنا من قبل ما قام به أولاد الشيخ فى عهد الصالح نجم الدين وما أدوه للدولة من خدمات ، وما لقيوه من تكريم أيضا وثقة من جانب السلطان ، وقد اتضح ذلك تماما مما يرويه المؤرخون مثلا عند خروج معين الدين حسن مقدما للعسكر المصرى المتجه إلى دمشق فى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، فيقول المقريزى[٣١] "وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطانى والخزائن ، وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له أن يجلس على رأس السماط ، ويركب كما هى عادة الملوك ، وأن يقف الطواشى شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط ، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه كعادتهم فى خدمة السلطان ، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته" . وهذه العبارات لا تحتاج إلى تعليق إلا أن نورد منها ما جاء فيها دالا غاية الدلالة وهى عبارة "وأقامه السلطان مقام نفسه" .

أما ما كان من أمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فإن السلطان سرعان ما أصدر قراراً بتحديد إقامته فى بيته ، ويعلل ابن واصل ذلك بقوله إن الأمير فخر الدين بعد أن أطلق الصالح نجم الدين سراحه "ركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا إلى الناس لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ، فاستشعر منه ولم يعجبه ذلك وأمره أن يلزم بيته"[٣٢] ، وكانت هذه المسألة من الأمور التى أودعها ابن واصل فيما بعد صحيفة اتهاماته وجعلها من بين الأسباب التى أوغرت صدر الصالح ضده وأدت إلى وقوع الوحشة بينهما ، وذلك أمر سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا عند ذهابنا إلى محكمة التاريخ فى صحبة الأمير فخر الدين .

وقد امتدت مدة الإقامة الجبرية هذه التى حكم على ابن شيخ الشيوخ بقضائها فى داره إلى ما يقرب من أربع سنوات ، حتى عفا عنه السلطان فى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م ، والذى يدعو للانتباه أن فخر الدين خرج من معتقله إلى حيث المكانة التى تليق به كواحد من أبناء أسرة الشيوخ، ليس هذا فحسب بل لكفاءته وتعدد مواهبه ، وهو ما أدركه فيه الكامل وقدره ، وما تنبه إليه الصالح وأفاد منه ، فما أن أفرج عنه حتى "خلع عليه وأمره

---

[٣١] – السلوك جـ١ ص ٣١٨ – ٣١٩ وقارن ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٤١ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ . والأستادار هو أحد أرباب السيوف ويتولى الاشراف على البيوت السلطانية ، وله التصرف التام فى احضار ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوى . أما أمير جاندار فهو أيضا أحد أرباب السيوف ، ويتولى الاستئذان لدخول الأمراء لخدمة السلطان ويدخل أمامهم إلى الديوان ، وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ... وهو الذى يطوف بالزفة حول السلطان فى سفره . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص ٢٠ .

[٣٢] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٢٧٦ – ٢٧٧ .

وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا[٣٣]، ولم يلبث أن عهد إليه بقيادة العساكر المصرية لمواجهة الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى وطد علاقته مع الخوارزمية وسعى كلاهما لمضايقة الصالح نجم الدين ، فاستولى فخر الدين على ما كان بيد الملك الناصر داود من البلاد وهى القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكرك وألقى حصاره عليها بعد أن التجأ إليها الناصر ومن معه من الخوارزمية ، وكان ذلك فى عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، فخرب ما كان حولها ، وضيق على الناصر ومن معه حتى قل ما عند الناصر من المال والذخائر[٣٤] ، فلما اشتد عليه الأمر بعث إلى فخر الدين يستعطفه ، فتم الاتفاق بينهما على أن يسلم الناصر كل من عنده من الخوارزمية إلى ابن الشيخ ، فتسلمهم منه ورحل عنه[٣٥] .

ولم يكد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ينجز هذه المهمة بنجاح حتى أمره السلطان الصالح بالخروج على رأس جيش كثيف للإغارة على عدد من المناطق التى يحتلها الصليبيون، فاتجه إلى عسقلان سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م وحاصرها وفتحها وهدم تحصيناتها ، ثم رحل عنها إلى طبرية فأنزل بها ما حل من قبل بعسقلان[٣٦] حتى إذا حققت هجماته أغراضها كتب إليه الصالح يأمره بالتوجه إلى دمشق بمن معه من العساكر بعد أن حملت إليه الأنباء عزم الناصر صلاح الدين صاحب حلب القفز على المدينة وضمها إلى أملاكه ، فقدم ابن الشيخ إلى دمشق وبقى مقيما بها حتى قدم الصالح نجم الدين أيوب إليها فى السنة التالية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وأقام بها جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة[٣٧] ، وعهد فى الوقت نفسه إلى الأمير فخر الدين بالخروج على رأس جيشه إلى حمص لاستخلاصها من يد الحلبيين ، وقد ألقى ابن الشيخ حصاره عليها حتى إذا أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى يديه ، وصل رسول الخليفة العباسى وعقد الصلح بين الطرفين ، وعاد الجيش المصرى إلى دمشق فأقام بها حتى نهاية هذا العام[٣٨] .

---

[٣٣] – المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ١ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٣ – ٣٤ .

[٣٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤ ؛ ابن أيبك، الدر المطلوب ، ص ٣٥٩ .

[٣٥] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥ .

[٣٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٧٨ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص٣٦ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ،جـ٥، ص ٢٣٠ .

[٣٧] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٦ .

[٣٨] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

على هذا النحو كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العساكر المصرية هـــو رجل المهام الصعبة وموضع ثقة السلطان الصالح ، كما كان موضع ثقة أبيه الكامل من قبـل ، واستمرت هذه الثقة قائمة حيث عهد إليه بقيادة الجيش المصرى لمواجهة الحملة الصليبيـــة السابعة التى يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، والتى ألقت مراسيها على الشواطئ المصريـــة عند دمياط سنة ٦٤٧هـــ/١٢٤٩م لتبدأ بذلك محنة الأمير فخر الدين التى تمثلت فى هـــذه الاتهامات التى عرضناها فى صدر هذا الفصل ، والتى دفعتنا - كما ذكرنا - إلى تحريك هذه الدعوى من جديد أمام محكمة التاريخ .

ولن نخوض فى التفصيلات الخاصة بالإعداد للحملة ، وما جرى فى أوروبا ، وما فعله لويس التاسع قبل مقدمه من الاستعدادات وتوفير كل الإمكانيات التى تســـاعد أو تحقـــق لحملته النجاح ، وليعوض من خلالها ما لحق بالحملات التى سبقتها - باستثناء السادســـة - من الفشل الذريع ، وهذه الأمور كلها يمكن الاطلاع عليها فى الكتب العديدة التى تنـــاولت أحداث هذه الحملة ، ومن ثم فإننا نقول هنا مباشرة إن لويس التاسع رحـــل مـــن مينـــاء ليماسول فى مايو ١٢٤٩م، بعد أن مكث فى قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مـــايو ١٢٤٩م) ، ليصل أمام دمياط فى المنطقة المعروفة بـــ "جيزة دميـــاط" ، وليبـــدأ بذلـــك الخطوات نفسها التى سبقه إليها جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة[٣٩] .

وكان الصالح نجم الدين أيوب عندما وصلته أنباء إعداد الحملة الصليبية عن طريـــق فردريك الثانى ، قد أعتقد أن الصليبيين ، بمنطق الإفادة من العمليات العســـكرية الســـابقة والأخطاء التكتيكية القاتلة التى أدت إلى فشل الحملة الخامسة ، لن يسلكوا الطريق نفســـه الذى سلكته تلك الحملة حتى لا يدخلوا ثانية فى شبكات مياه النيـــل ، تجنبـــا للغـــوص كأسلافهم فى أوحال الدلتا ، إذا ما قطع المصريون الجسور المقامة على الفروع المختلفـــة للنهر ، وتوقع بالخبرة العسكرية أن يذهب لويس التاسع إلى اتباع الطريق الذى جاءت منـــه حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ستينيات

---

[٣٩] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليـــبى علـــى مصـــر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـــ٢ ص ١٠٥٢ - ١٠٧٥ ؛ Setton, *A history of the Crusades*, II pp. 487 - 521; Runciman, *A history of the Crusades*, III pp. 255 - 292

القرن الثانى عشر ، ولذا قام بزيارة للمنصورة وتفقد حصونها ، ثم اتجه إلى أطراف محافظة الشرقية الحالية ليقيم منطقة عسكرية – جديدة لتقف فى وجه هؤلاء القادمين عن طريق الصحراء كما توقع ، وعرفت هذه المنطقة باسم الصالحية . وكان هذا الإجراء من جانب الصالح دليلا على فطنة عسكرية ، وإدراك لما كان من المفروض أن تقدم عليه الحملة الصليبية . غير أن نزول الصليبيين عند دمياط يوحى دون شك بأن تأثير التجار الإيطاليين على لويس التاسع لم يكن أقل منه على سلفه جان دى برين .

ومع كل هذه التوقعات التى تحتمها الخبرة العسكرية ، إلا أن السلطان أخذ فى الوقت نفسه يستعد حربيا لمواجهة هذا الغزو الصليبى ، فأنتقل من دمشق إلى مصر محمولا على محفة لاشتداد المرض به ، واستقر أول الأمر فى أشموم طناح التى اتخذ منها معسكرا له ومركزا لعملياته ، وأصدر أوامره بعودة القوات المصرية التى كانت على حصار حمص إلى مصر فورا، كما أنه عمل بكل ما وسعه الجهد على تحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب ، وليس أبلغ فى التعبير عن ذلك مما ذكره السلطان نفسه عن دمياط حيث يقول ما نصه[٤٠] : "وأنا قويّت دمياط ، وملأتها ذخائر من كل شئ ، يكفيها عشرين سنة مع ما كان عند أهلها من الذخائر ... وقويتها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس وراجل ، وما خليت (هكذا) لها عذرا ، حتى بقيت وحدى فى أشموم بسبب المرض" .

وفى إطار هذه الاستعدادات العسكرية ، عهد السلطان إلى جماعة من الكنانية ، وهم الجند العرب الذين استوطنوا مصر فى المنطقة بين البرلس ومياط ، واشتهروا بالشجاعة والمثابرة فى القتال، ولعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن دمياط أثناء حصار الحملة الصليبية الخامسة ، عهد إليهم الملك الصالح بحماية المدينة من الداخل ، فشحنت أبراج المدينة وأسوارها بأعداد ضخمة منهم ، بينما أمر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش المصرى ، أن يتقدم على رأس جيشه إلى البر الغربى للنيل قبالة دمياط ، أو المنطقة التى تعرف – كما قدمنا – بـ "جيزة دمياط" ، والتى نزلت فيها الحملة الخامسة، والتى وردت التقارير إلى معسكر الصالح بأنها قصد الصليبيين الآن ، وأعطى الأوامر أيضا إلى الأمير حسام الدين ابن أبي على ، نائب السلطنة فى القاهرة ؛ بأعداد قطع الأسطول المصرى وتجهيزها بالرجال والعتاد ، وإرسالها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط، لتكون مانعا ضد أية حركة صليبية تجرى فى نهر النيل[٤١] .

---

[٤٠] – النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٤٣ .

[٤١] – زيادة ، جملة لويس التاسع، ص ١٠٣ ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى، ص ٨٢ – ٨٣ .

ويبدو أن أخبار مرض الملك الصالح نجم الدين قد نقلت إلى الملك لويس التاسع عن طريق أعوانه من الصليبيين فى الشام ، ولابد أن يكون ملك فرنسا قد استبشر خيرا بهذه الأنباء ، ولعله أراد أن يستغل هذه الفرصة فيضرب ضربته والحديدة محماة ، أى ينتهز هذه النهزة للضغط على أعصاب السلطان المريض ، الواهن القوى ، عن طريق ما نعرفه فى زماننا هذا بـ "الحرب النفسية" ، مع أننا رأينا كيف أن الصالح وإن كان قد هدّه المرض فعلا كما تخبرنا المصادر المعاصرة، إلا أنه لم يكن أبدا خائر العزيمة ، بدليل كل ما أقدم عليه من استعدادات عسكرية فى الصالحية وأشموم طناح والمنصورة ودمياط وجيزة دمياط على المستويين البرى والبحرى على السواء . لكن لويس أراد أن يهتبل كل سانحة لإضعاف خصمه والنيل من عزيمته قبل أن تبدأ المعركة ، أو هكذا ذهب به الظنون ، ومن ثم فإنه بعث إلى سلطان مصر برسالة[٤٢] تفيض بالتهديد والوعيد ، نقتطف منها هنا لأهميتها بعضا مما جاء فيها ، قال :

" ... (ونحن) نقتل العباد وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد ، فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم فى أسر الوبال ، فيكثر فيهم العويل ، ولا يرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل ، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصح والهداية ... فلا تكون فيك فترة ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود وتقول يا ليت .. فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد" !!

والى جانب هذا التهديد الصريح والوعيد ، تضمنت الرسالة عبارات تفيض بالتباهى والتفاخر بما تم ارتكابه من الفظائع والوحشية ضد مسلمى الأندلس خلال حرب الاسترداد الدائرة هناك ، وما تعرضت له الإسكندرية من هجمات سابقة على يد الصليبيين وملكى صقلية وبيت المقدس ، إشارة إلى ما ينتظر الصالح ومصر من سوء العاقبة إذا لم يبادر السلطان بإعلان الاستسلام واعتبار نفسه نائبا عن ملك فرنسا فى حكم مصر ، كما أفصحت سطور الرسالة !!

---

[٤٢] – ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٦ – ٣٦٧ . وقد ناقش كل من الدكتور حسن حبشى فى كتابه ، الشرق العربى بين شقى الرحى ، ص ٣٦ – ٤١ ؛ والدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه ، حملة لويس التاسع على مصر ص ١٠٨ ؛ والدكتور جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ٢٩١ – ٢٩٣ ، موضوع رسالة الملك لويس التاسع ورد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عليها ، وموقف المصادر منها ، لمزيد من الدراسة راجع هذه المؤلفات .

ولم يحقق هذا الإنذار الفرنسى الآمال التى كان يعقدها عليه لويس ، بل على العكس زاد الملك الصالح عزيمة وإصرار على التصدى لهذه الغطرسة الصليبية ، فكتب إليه يقول :

" ... أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وهاأنذا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ؛ فإن كنت لك فأنت الساعى وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك .. وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجلك ، أو ما تعلم أنا نحن أرباب السيوف وأبطال الحتوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس ، إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل ، ولعضيت على يدك بسن الندم ، ولأخرت تحريك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . فإذا قرأت كتابى هذا فلتكن منه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" ، ولتكن منه على آخر سورة ص "ولتعلمن نبأه بعد حين"، هنالك تتطاول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون، "وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" ، وإلى قول الحكماء "إن الباغى له مصرع" ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام"[٤٣] .

وكان لابد أن تأتى رسالة الصالح أيوب على هذا النحو ردا ايجابيا على ما حوته تهديدات لويس التاسع ، مبينا أن الصليبيين هم المعتدون ، وأنهم هم الذين سعوا إلى إشعال نيران هذه الحرب ، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين ، وكان حتما مقضيا ، ولا تخلو الرسالة أيضا من نغمة التخويف بالقوة التى يتمتع بها الجيش المصرى متمثلة فى فرسانه ومشاته بأسلحتهم وصبرهم على القتال وشدة بأسهم فى الحروب .

ووسط هذه الأجواء من الحرب النفسية ، ظهرت السفن الصليبية أمام الشواطئ المصرية فى يوم الجمعة الرابع من يونية ١٢٤٩ / العشرين من صفر ٦٤٧هـ ، وتعرضت عند ظهورها لمناوشات من جانب بعض قطع البحرية المصرية التى أرسلت بغرض الاستكشاف ، وإن كان الأسطول الصليبى قد طوق ثلاثا من هذه القطع الأربع واستولى على من وما فيها . وفى اليوم التالى مباشرة ، السبت بدأت القوات الصليبية فى النزول إلى

---

[٤٣] – ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٢ – ٣٦٩ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .

الشاطئ الغربى للنيل قبالة دمياط ، فى المنطقة المعروفة بجيزة دمياط ، حيث كـــان يعســكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر والقوات المرابطة معه . ولم يكـــن نـــزول فرق الجيش الصليبى يسيرا ، إذ أخذت القوات المصرية فى التعامل معها فى محاولة لمنعها مـــن الانتشار أو إقامة معسكر لها . وفقد الجيش المصرى فى هذه المعركة الأولية واحدا من أبـــرز قواده هو الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان من أشد المقربين إلى السلطان الصـــالح أيوب ، وكذلك الأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، واستطاع الصليبيون فى نهاية الأمـــر أن يكملوا عملية إنزال القوات إلى الشاطئ ، وأن ينصب الملك خيمتـــه ، ويضـــرب أمـــراؤه خيامهم حولها .

وفجأة ودون سابق إنذار ، انتهز الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، القائد العـــام للجيش، دخول الليل فانسحب بكل من معه من العساكر فى هدوء ودون جلبة إلى الشاطئ الشرقى للنيل عند دمياط ، حتى أن أحدا من المعسكر الصليبى لم يعـــرف برحيلـــهم إلا فى صبيحة اليوم التالى ، ولم يتوقف فخر الدين وقواته فى دمياط ، بل ولى وجهه وجيشه معـــه مباشرة إلى أشموم طناح حيث يعسكر السلطان . وكان لابد أن يثير هذا التصرف الفـــزع والهلع فى نفوس أهل دمياط وهم يرون مقدم العسكر وعسكره يخرجون بكـــامل قواهـــم وعددهم باتجاه المعسكر السلطانى ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية التى وكل إليـــها الدفاع عن المدينة وتحصنوا بأبراجها وأسوارها ، ما أن رأوا ذلك حتى أطلقوا هم الآخـــرون سيقانهم للريح ، بعد أن أشعلوا النيران فى سوق المدينة ، "وخرجوا ومعهم أهل دمياط علـــى وجوههم طول الليل ، ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا مـــن الرجـــال والنســـاء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح" .

وسوف أترك المجال هنا للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليعلق علـــى هـــذه الأحـــداث المتلاحقة التى لم تستغرق من الليل إلا ساعات معدودات ، وترتب عليها أمور جسام كادت تقلب كفة التوازن الدولى فى المنطقة لو تم للصليبيين تحقيق حلمهم بالسيطرة على مصـــر، وليس هناك أقدر على وصف ما حدث من مؤرخنا هذا ابن واصل، يقول: "... كان هـــذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر، فإن فخر الدين لو منع العسكر مـــن الهـــرب، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملـــك الكـــامل (الحملة الصليبية الخامسة) كانت أقل ذخائر وعددا، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد ســـنة، فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وســـتمائة، لم يتمكـــن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع ... والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابهـــا

وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ، ومنعت الفرنج عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له"[٤٤] .

ولو قارنا هنا بين ما يذكره ابن واصل عن حصانة دمياط وشجاعة من بها الكنانية والمصريين أهل البلد ، وما فيها من الأسلحة والعتاد ، وبين ما قاله الملك الصالح عن تحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، وأضفنا إلى ذلك كله الاستعدادات العسكرية الضخمة التى قام بها السلطان ، سواء فيما يتعلق بالقوات البرية أو البحرية، لو جمعنا هذا كله لأدركنا أن الأمير فخر الدين – كما يبدو من ظاهر القول – لم يصدر أوامره بالانسحاب من جيزة دمياط والعودة إلى أشموم طناح ، عن ضعف فى هذه القوات أو نقص فى عتادها ، حتى أن جوانفيل ، كاتب سيرة لويس التاسع ، يقول "وصل الملك أمام دمياط، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهى كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب (هكذا) إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى نفوس سامعيها "[٤٥] ، ومن ثم فإن هذا الانسحاب المفاجئ فى جنح الليل يمثل علامة استفهام كبيرة ، خاصة وأن كل عوامل النصر على الصليبيين الآن كانت قائمة .

وتجد علامة الاستفهام هذه إجابة لها عند مصدرين معاصرين ، أحدهما المؤرخ الصليبى جوانفيل ، شاهد العيان فى هذه الحملة ، والمؤرخ الإسلامى ابن واصل المعاصر لهذه الأحداث ، ونلتقط أول خيط فى الإجابة من قول جوانفيل "استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو المالك ، لكنهم لم يتلقوا جوابا ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط"[٤٦] ويعلل البغدادى[٤٧] عدم رد السلطان على الرسائل إلى أنه كان واقعا تحت تأثير المخدر الذى

---

[٤٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، نقلا عن الملحق رقم ١ فى كتاب دكتور محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٥ – ٣١٤ ، وهذا الملحق يتناول أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائيا عن دمياط ، منقول من الجزء الذى لايزال مخطوطا من كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ولذا فإننا سوف نشير ابتداء من الآن فى الحواشى إلى ذلك بعبارة "الملحق المذكور" ونورد رقم الصفحة كما جاء ترقيمها فى كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة . راجع أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٤ .

[٤٥] – جوانفيل ، القديس لويس ص ٩١ .

[٤٦] – جوانفيل ، القديس لويس ص ٩٦ .

[٤٧] – الحوادث الجامعة ص ٢٤٠ (نقلا عن محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة غير منشورة ، ص ١٢٥ .

أعطاه إياه الطبيب ليخفف عنه آلامه ، ونصح فى الوقت نفسه بعدم إزعاجه . وأيا كانت الأسباب فإن الجيش المصرى المعسكر فى جيزة دمياط لم يتلق ردا على رسائله إلى الصالح أيوب . أما الخيط الثانى فنجده عند ابن واصل الذى يقول : "ولما عدى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقى ، رحل العسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح"[٤٨] .

والمصدران يتفقان على أن السبب الرئيسى فى انسحاب العسكر من الضفة الغربية للنيل وتركها خالية أمام الصليبيين ، كان اشتداد العلة على السلطان وتوقع وفاته بين لحظة وأخرى ، وهو أمر يقتضى حسب مفهوم العسكر آنذاك الوجود بالقرب من موقع الأحداث للمشاركة فيها أو التحكم فى مجرياتها وتسيير دفتها بما يتفق وطبيعة الأمور ، هذا ما يوحى به حديث المصادر . ويفهم للوهلة الأولى من رواية ابن واصل أنه يلقى بالتبعة كاملة على فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حين يقول صراحة : "وكان هذا فعلا قبيحا منهم (يعنى الكنانية) ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط" ، وكان اتهاما صريحا للأمير فخر الدين بالتفريط والتهاون فى المهام الملقاة على عاتقه من الناحية العسكرية ، وإخلالا بالواجب العسكرى المنوط به باعتباره القائد العام للجيش ، بل يصل الأمر إلى حد الاتهام بالخيانة العظمى حين ينسب إليه طمعه فى القفز على العرش ، وأنه ترك الجبهة وارتد إلى أشموم طناح لينتهز أول بارقة أمل فى موت السلطان ليحقق مأربه الذى يدفعه إليه طموحه الذى احتوت عليه نفسه منذ زمن بعيد يعود إلى بداية تملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة الديار المصرية ، على حد قول ابن واصل عنه صراحة ، "إنه كان عالى الهمة جدا ... وكانت همته تترقى إلى الملك ... وكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"![٤٩] .

ولم يكن غريبا أن تحذو المصادر الأخرى حذو ابن واصل ، فهذا ابن أيبك[٥٠] يعتبر أن ما أقدم عليه الأمير فخر الدين يعد "رأيا ذميما وسوء تدبير" ، بينما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى[٥١] "إن هذا (يعنى الانسحاب) كان من قبيح رأى فخر الدين" ، فإذا ما جئنا إلى المقريزى وجدناه شديد اللوم لفخر الدين يكاد يردد عبارات ابن واصل ويقول "فعدت هذه

---

[٤٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٦ .
[٤٩] – المصدر السابق ، ص ٢٨٥ – ٢٩٤ .
[٥٠] – الدر المطلوب، ص ٣٦٩ .
[٥١] – النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص ٣٣٠ .

الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ... وقامت الشناعة من كل أحـــد علـى الأمير فخر الدين"[٥٢] وعلى نفس المنوال نهج المؤرخون المحدثون وكالوا الاتهامات للأمير فخـر الدين واعتبروه مسئولا عن كل ما وقع من الأحداث الجسام التى صاحبت هـــذه الحملـة السابعة على أرض مصر منذ سقوط دمياط حتى معركة المنصورة[٥٣] ولم يأخذ موقفا مغـايرا

---

[٥٢] - المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

[٥٣] - يقول أستاذنا الدكتور سعيد عاشور "وربما كان السبب فى تعجل فخر الدين فى الفرار ، هو اعتقاده بأن السلطان المريض -الملـك الصالح أيوب - قد توفى فعلا ، فى الوقت الذى كان فخر الدين ذا أطماع "تترقى إلى الملك" (وهذه عبارة ابن واصل) ، مما جعلـه يسرع لتحقيق أطماعه تاركا دمياط لقمة سائغة للصليبيين" ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٦١ ، وافتتاح الحديث بكلمة "ربمـا" يفيد الشك أو الاحتمال والتحفظ فى الوقت ذاته . بينما يعلنها الدكتور جوزيف نسيم يوسف حربا لا هوادة فيها ضد فخر الديـن متهما إياه صراحة بالخيانة بعبارات تفوق أحيانا ما أدانته به عبارات المصادر ، ولأهمية ذلك فى عرض القضية التى نحن بصددهـا ، فإننى آثرت أن انقل هنا نص ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف رغم طول فقرات هذا النص : "... ويعلـل بعـض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاة الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجـه ، بسبب تفوقهم عليهم فى العدة والعدد ، حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت فارتدت إلى دمياط وتركتـها دون أية مقاومة إلى أشموم طناح .

"ويبدو أن هذا التعليل غير معقول (نجد بعد ذلك حديثا عن حصانة دمياط ومقاومتها إبان الحملة الخامسة وعبارات ابن واصل التى تلقى باللوم على فخر الدين لانسحابه) ... ومن الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الإسلامية عند مرآى الفرنـج وأساطيلهم لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقى الذى دفع فخـــر الديـن إلى الفـرار بالعسكر وترك دمياط فريسة سهلة فى أيدى العدو ، ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الديـن نفســه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ .

"لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المطامع عريض الآمال ، ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثته نفســه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه جاء فى المصدر السابق (يعنى ابن واصل ، مفرج الكروب) "كان قد انتهى إلى قريب رتبـة الملـك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك" .

"أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه ، ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشـــود الذى طالما كان يسعى إليه ، فعندما لم يتلق ردا على رسائله التى بعث بها إلى السلطان ، اعتقد أن السلطان المريض قـــد مـات ، فانتهز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط عله يستولى على الملك . وقد جاء فى مخطوط ابن واصل نص صريـــح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصرى (!!) وعسكره يقول فيه (وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض الســـلطان الملـك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردعهم أو يردهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح ، كمـــا ذكر فى موضع آخر ، ولم يبق للسلطان (!!) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه) ، يتضح لنا مما سبق أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن فى الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عددهم ، لكنهم أرادوا استغلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مطامعـهم ، ظنا منهم أن سلطانهم قد وافته منية فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة (من المعروف أنهم لم يتجهوا إلى العاصمة ، القاهرة ، بـــل اتجهوا إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح) ، علهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان ، غير ملتفتين إلى الدفـاع عن دمياط ، بينما لو ثبتوا فيها لأمكن صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم" .

ويواصل الدكتور جوزيف هجومه على فخر الدين فيقول "وبالرغم من الخيانة التى اتهم بها فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس (!!) ولهذا فقد عهد إليه بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة قبل أن يصل المعظم (تورانشاه بـــن الصالح) من الحصن (حصن كيفا) . ولمتسائل أن يقول : إذا كان فخر الدين طامعا فى الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعـــا بهـذا السبب ، فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين أم جدد محاولاته للوصول إلى كرسى السلطنة ؟ لقد عمـــل هذا القائد المصرى على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهى بعد موت سيده ، وتصرف فى الأمور تصرفـــا مطلقا ، وشرع فى إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأنفق فى العسكر ، وحلع على خواص الأمراء، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير ، كما صار له موكب عظيـــم بـالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون سماطه ، حتى لقد خشى حسام الديـــن نـائب الســلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد به لنفسه ، فسير قاصدا من قبله إلى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبـــل أن تخرج البلاد من يده ، كذلك بعثت شجر الدر وباقى الأمراء القصاد لإحضار المعظم ، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلـك

لذلك إلا الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الذى تحفظ على هذه الاتهامات التى سيقت ضد الأمير فخر الدين ، بقوله : "... اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتا من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حيا أو ميتا ، ليشارك أولا فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة والوراثة السلطانية "[٥٤] .

ويمضى الدكتور زيادة قائلا : "والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيدا عن المعترك السياسى البلاطى، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولا بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة ، ثم إنه كان القائد فخر الدين شعر بأنه مبعد عمدا عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح "[٥٥] .

وبعد أن يوضح الدكتور زيادة عبارة "المصالح الشخصية" هذه لدى الأمير فخر الدين وذلك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين أو المحدثين كما بيناها آنفا ، يختتم حديثه بقوله : "غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط ، سوف تفند هذه الشكوك (التى سيطرت على متهمى فخر الدين) ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ حسب معايير العصور الوسطى "[٥٦] .

حتى لا تحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول تورانشاه من الحصن لعلمه أن الأعداء كانوا متربصين له فى الطريق، وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح لفخر الدين وعزموا على قتله . ولكن يحمد هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ، وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل ، وواضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمئنهم بأنه لا يعمل للوصول إلى العرش ، وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده" .

ويختتم الدكتور حوزيف دعوى الاتهام العنيف بقوله "وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب ، كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ، لكن القضاء لم يمهله طويلا إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واتته الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن ولصار إليه ملك البلاد . راجع ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٠٣ - ١٠٦ ، ١٤١ - ١٤٣ .

[٥٤] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ١١٤ .

[٥٥] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ص ١١٤ .

[٥٦] - المرجع السابق نفسه ص ١١٤ - ١١٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زيادة عند تحقيقه لكتاب "السلوك لمعرفة ولى الملوك" للمقريزى فى عام ١٩٥٦ ، ذكر تعليقا يفيد الموافقة نسبيا على رأى ابن واصل والمقريزى فى قيام فخر الدين ، فقد جاء فى حاشية رقم ٥ ص ٣٤٥ من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، قوله : " يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل " كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح ، وكانت همته تترقى إلى الملك " ، وفى عام ١٩٦١ أصدر الدكتور زيادة كتابه " حملة لويس التاسع على مصر " وذكر الآراء التى عرضنا لها فى المتن ويبدو فيها التحفظ واضحا على اتهامات المؤرخين لفخر الدين .

وبعد تلاوة صحيفة الدعوى المرفوعة ضد فخر الدين يوسف بن شـــيخ الشـــيوخ ، والمفعمة بقائمة الاتهامات والشكوك ، و "الشناعات" على هذا النحو الذى رأينا ، فإنـــه لا مدنوحة ، سواء بشأن هذه الصحيفة ووجودها أو عدم تحريكها ، عن التسليم المطلق بداهـة وبداية إن إقدام أى قائد عسكرى ، ناهيك عن القائد العام ، على الانسحاب بقواته مـــن ميدان المعركة ، دون أن يكون هذا ضمن الخطة التكتيكية الحربية للمعركة ، بعد إخـــلالا بالواجبات العسكرية ، وإثما كبيرا يجب أن يواجه بأقصى عقوبة ينـــص عليـــها القـــانون العسكرى ، كان هذا فى العصور الوسطى أو العصر الحديث ، وهذا هو ما فعله الســـلطان الصالح أيوب مع الكنانية الذين تركوا مواقعهم فى أبراج مدينة دمياط وأسوارها وهربـــوا ، حيث أصدر أوامره بإعدام خمسين أو يزيد من زعمائهم ، وتم فعلا إعدامـــهم ، هـــذا فى الوقت الذى اكتفى فيه بتوجيه اللوم والتأنيب فقط إلى قائد جيشه ، وأبقاه فى منصبه كمـــا هو ، قائدا عاما للجيش المصرى !! وهذه مسألة لاشك تثير الحيرة والدهشة أمام أى باحث إذ كيف يتم شنق خمسين من زعماء الكنانية لفرارهم من دمياط ، مع أن هذا جاء نتيجة لمـــا رأوه من تخلى الأمير فخر الدين عن مواقعه فى الضفة الغربية للنيل ، ومـــروره بدميـــاط فى طريقه إلى أشموم طناح ، ومن ثم تبعوه حسبما جرت به رواية المصادر ؟! .

وقبل أن نصدر حكما فى هذه القضية الشائكة ، فإنه يتحتم علينـــا إعـــادة قـــراءة النصوص المعاصرة بدقة وروية ، بل والتوقف طويلا أمام كل اتهام تضمنته صحيفة الدعـــوى ومناقشة أصحابها ، حتى يجئ الحكم متفقا مع حيثياته .

علمنا من جوانفيل أن الانسحاب جاء نتيجة لعدم تلقى القوات المعسكرة فى جـــيزة دمياط ردا على الرسائل الثلاث التى بعث بها القائد العام إلى المعسكر السلطانى فى أشمـــوم طناح، وسريان شائعة احتمال موت الملك الصالح ، ولعل الذى يقفز إلى الذهن الآن مباشرة تساؤل ملح عن مضمون تلك الرسائل وما الذى كانت تحتويه . ولما كانت المصادر تخلـــو حتى من الإشارة إلى هذه الرسائل ، ولم يزد جوانفيل عن ذكر عددها فقط ، فليس أمامنـــا من سبيل إلا أن نستقرى سطورها من بين الأحداث والوقائع التى صحبتها أو تلتها . والذى لاشك فيه أن هذه الرسائل لابد أن تكون أشبه شئ بما نعرفه فى زماننا هـــذا بالبلاغـــات الحربية التى تصدرها القيادة العامة للجيش عن سير المعارك ، ومن ثم فمن المتوقع أن تكـــون الرسالة الأولى قد حملت إلى المعسكر السلطانى نبأ نزول القوات الصليبيـــة إلى الشـــواطئ

المصرية عند جيزة دمياط ، قبالة القوات المصرية المرابطة هناك[٥٧] إضافة إلى تقرير القيادة العامة لعدد الجيش الصليبى والأسطول المصاحب له ومن المتوقع أيضا أن تكون الرسالة الثانية قد أبلغت السلطان بأخبار المناوشات التى وقعت بين طلائع القوات الغازية ومقدمة الجيش المصرى ، وهى المناوشات التى استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، كما أسلفنا ، وكانت محاولة لوقف انتشار الجيش الصليبى ، ويبدو طبعا أنها لم تستمر طويلا ، إذ نقف على ذلك من قول الملك الصالح للعسكر بعد عودتهم إلى أشموم طناح "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"[٥٨] ، وليس من المستبعد أن تكون الرسالة الثانية هذه قد تضمنت إلى جانب ذلك الإشارة إلى خطورة الموقف من جراء التفوق العددى الواضح للجيش الصليبى ، خاصة وأن المنطقة التى تعسكر فيها فرق الجيش المصرى لم تكن على قدر من الحصانة العسكرية بحيث تهيئ فرصة دفاعية أفضل من مواجهة الصليبيين ، وعليه فليس من المستبعد أيضا أن يكون القائد العام ، الأمير فخر الدين ، قد طلب المشورة من السلطان فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولما لم يتلق مقدم العسكر ردا على رسالتيه السابقتين وبخاصة الثانية ، بادر على الفور بإرسال الثالثة والتى نرجح أن يكون قد عرض فيها على السلطان مقترحات محددة بشأن الموقف العسكرى وكيفية مواجهته ، وإدخال بعض التعديلات على الخطط الحربية السابقة التى كان السلطان قد أقرها بشأن الدخول فى معركة حاسمة مع الصليبيين عند نزولهم إلى الشواطئ المصرية فى جيزة دمياط ، وهو ما ارتآه عقب عودته مباشرة من الشام إلى مصر ، لدى سماعه بأنباء قدوم الحملة الصليبية ، ولما كان فخر الدين قد وقف الآن عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى ، وأيقن أن الدخول فى معركة فاصلة مع الصليبيين فى جيزة دمياط غير مضمونة العواقب أمام كثافة أعداد الجيش الصليبى ، لذا رأى أن يجرى تعديلا سريعا فى الخطة الحربية السابقة بما يضمن عدم نجاح الصليبيين فى تحقيق أهدافهم .

وتؤكد رجحان كفة هذا الرأى عندنا ما أخبرتنا به المصادر عن حجم قوات لويس التاسع وكثرة أعدادها ، فابن واصل يقول : "... وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، (يقصد الصليبيين بالشام) ، فأرسوا فى البحر بازاء المسلمين"[٥٩] ، وقد أسلفنا أن هذه السفن أسرت ثلاثا من سفن الأسطول

---

[٥٧] - يقول جوانفيل " استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه ببأ رسو الملك ، راجع القديس لويس ص ٩٦ .

[٥٨] - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٦ .

[٥٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٥ .

المصرى بمن وما فيها ؛ أما ابن أيبك الدوادارى[٦٠] فيخبرنا أن الإمبراطور فردريك الثـــانى ، الذى لم تنقطع صلته بالأيوبيين بعد وفاة السلطان الملك الكامل ، أرسل إلى السلطان الملـــك الصالح بخبره بخروج هذه الحملة الصليبية قاصدة مصر ، وأنه (أى لويس التاسع) "قد وصـــل فى خلق كثير" ثم يقول ابن أيبك نفسه "وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة" ؛ هـذا على حين يردد المقريزى[٦١] عبارات ابن واصل حيث يقول : "وصلـــت مراكـــب الفرنـــج البحرية وفيها جموعهم العظيمة ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا فى البحـــر بإزاء المسلمين" ؛ بينما يخبرنا أبو المحاسن[٦٢] بأن ملك فرنسا "قد خرج من بلاده فى جمـــوع عظيمة" ، ومن الملاحظ هنا أن هذه المصادر كلها تتحدث عن ضخامة الجيـــش الصليـــبى وكثرة أفراده ، دون أن تحدد عددا معينا ، وقد أكمل الحنبلى[٦٣] الصورة بقوله : "جمع (ملك فرنسا) جمعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل" ويذكر أبو الفدا[٦٤] العدد نفسه الذى ذكـــره الحنبلى . وحتى يصبح الموقف أكثر وضوحا فإننا نورد ما يذكره كاتب سيرة لويس ، نعـــنى جوانفيل ، الذى يخبرنا فى سطور متفرقات عن قوة الجيش الصليبى ، فيذكر أولا عند مغادرة لويس لقبرص ، "أن البحر على امتداد البصر كان مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفـــا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة"[٦٥] ، وعند الوصول أمام شواطئ دمياط ، يقول "دعـــا الملك بارونات للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله (وكانت العواصف قد باعدت بين كثير من سفن الأسطول الصليبى) ، خاصة وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث"[٦٦] ، ومع أن جوانفيل لا يضع رقما معـــين لعـــدد جنود الحملة ، إلا أننا نستطيع أن نقف على تقدير تقريبى لضخامة الجيش من أسماء الأمـــراء الذين شاركوا لويس فى حملته طبقا للنظام العسكرى ، فى الإقطـــاع الأوروبى فى العصـــور الوسطى[٦٧] ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وألفونـــس كونت بواتييه ، وشارل كونت أنجو[٦٨] . والرقم الوحيد الذى ذكره جوانفيل كان عن عـــدد

---

[٦٠] – الدر المطلوب، ص ٣٦٦ .

[٦١] – السلوك، جـــ١ ،ص ٣٣٣ – ٣٣٤ .

[٦٢] – النجوم الزاهرة ،جـــ٦ ،ص ٣٣٠ .

[٦٣] – شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٢٩ .

[٦٤] – المختصر فى أخبار البشر ،جـــ٣ ،ص ١٨٧ .

[٦٥] – جوانفيل ، القديس لويس، ص ٩٠ .

[٦٦] – المصدر السابق ، نفسه ، ص ٩١ .

[٦٧] – يقول جوانفيل " ... كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز والكونت الباسل هيو دى سانت بـــول ، وابـــن أخيه جوشيه ... وكوانت دى لامارش ، وابنه هيولى برون ، وكونت ساريوك وأخوه جوبرت دابرمونت " . هذا إضافة إلى أخـــوة لويس الثلاثة وكثيرين غيرهم . راجع القديس لويس ص ٧٥ – ٧٦ .

[٦٨] – جوانفيل ، القديس لويس ص ٧٥ .

الفرسان المحيطين بالملك وقدره بألفين وثمانمائة[٦٩] ، ومن هذه الأسماء وهذا الرقم وطبيعة نظام الفروسية فى العصر الإقطاعى ، اقترح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يكون المجموع الكلى لقوات لويس التاسع على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألف مقاتل[٧٠] ، وهو لم يبعد بذلك عن المراجع الأوروبية التى ذكر بعضها أن جيش الملك لويس كان خمسة وعشرين ألف مقاتل[٧١] ، بينما راوحها بعض آخر [٧٢]ما بين هذا الرقم الأخير وخمسة عشر ألف جندى فقط .

أما القوات التى كانت يقودها الأمير فخر الدين فى جيزة دمياط ، فقد وصلت منذ قليل مع قائدها من على حصار حمص فى أعالى الشام ، بعد أن أصدر الملك الصالح أوامره بسرعة عودتها حتى تتهيأ لمواجهة الغزو الصليبى ، ولم تكن أعداد هذه القوات تقترب بأى حال من الأحوال من أعداد جيش لويس ، وهذا أمر نقف عليه من الأعداد التى يذكرها لنا المقريزى[٧٣] عند حديثه عن التنظيمات العسكرية للجيش الأيوبى ، الذى كانت أعداد عسكره تتراوح فى أحسن الأحوال دائما بين أربعة عشر ألف مقاتل وعشرة آلاف .

على هذا النحو يمكن أن نقف فعلا على محتوى الرسالة الثالثة العاجلة التى بعث بها الأمير فخر الدين مقدم العسكر إلى الملك الصالح ، والتى رجحنا أن يكون قد أشار على السلطان فيها بضرورة تعديل الخطة الحربية ، والذى كان بالضرورة – كما أكدت الأحداث، يتضمن الانتقال من الضفة الغربية للنيل فى جيزة دمياط ، إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط نفسها بحيث يمكنها الصمود ومواجهة الصليبيين ، وتلك حقيقة يعرفها الأمير فخر الدين حق المعرفة ، ويدرك مدى قدرة دمياط على التصدى لحصار الصليبيين ، فقد كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الخامسة ، قريبا جدا من الملك الكامل ، عارفا بكثير من الأمور العسكرية ، مدركا أن هذا يمثل أفضل الخيارات العسكرية التى يمكن الإقدام عليها ، بدلا من

---

[٦٩] – المصدر السابق نفسه ص ٩١ .

[٧٠] – حملة لويس التاسع ص ٩٩ وحاشية (من الصفحة نفسها .

[٧١] – Runciman, *Crusades*, III p. ; Grousset, *Croisades*, III, p. 438 n.I.

[٧٢] – Strayer (J.R.), *The Crusades of Louis IX* (in Setton, Crusades, II ,pp. 493 - 494.

وراجع أيضا: ماير (هـ. إ.) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة/ عماد الدين عانم ، ليبيا ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧٦ – ٣٧٧ .

[٧٣] – الخطط ، جـ١ ، ص٨٦ .

مواجهة القوات الصليبية فى معركة مكشوفة كان التفوق العددى فيها لجيوش لويس التاسع، كما أن المناوشات الأولى - كما بينا - كانت الغلبة فيها للملك الفرنسى . من هنا ترجح أن يكون الأمير فخر الدين قد عرض ذلك على السلطان ، مبينا عدم جدوى البقاء فى جيزة دمياط ، فلما لم يتلق ردا من المعسكر السلطانى على رسائله ، بادر بتنفيذ ذلك على مسئوليته الخاصة باعتباره القائد العام للجيش المصرى ، وليس هذا ضربا من التخمين ، ولكن هو ما تؤيده الأحداث من بعد ، والتى سوف نتناولها تفصيلا ، وإن كان يأتى فى مقدمتها أن السلطان الملك الصالح لم يقدم على اتخاذ أى عقوبة عسكرية ضد الأمير فخر الدين أو هيئة أركانه أو عساكره.

ويزيد من ترجيح ما نذهب إليه أن عملية الانسحاب من البر الغربى إلى البر الشرقى تمت بصورة منظمة وسريعة استغرقت فقط جزءا من الليل ، ولم يشعر بعملية الانسحاب هذه أحد من أفراد الجيش الصليبى المعسكر بالقرب جدا من هذه القوات المنسحبة ، ولو أن المسألة كانت فرارا كما يصوره المؤرخون ، لما تم بهذا الشكل الهادئ المنظم دون جلبة أو اضطراب ، حتى أن الصليبيين فوجئوا فى صبيحة اليوم التإلى بعدم وجود قوات الصالح أيوب قبالتهم فى جيزة دمياط . ولم يحدثنا المؤرخون عن وقوع فرد واحد من هذه القوات المنسحبة غريقا فى النيل بسبب الفوضى والاضطراب التى تصاحب أى عملية للفرار والهروب من ميدان المعركة ، وهذا يعد دليلا واضحا أن الانسحاب تم فى سرية تامة وهدوء كامل وترتيب دقيق أشرف عليه القائد العام وهيئة قيادته ، ولو لم يجر الأمر على هذا النحو ، وتنبه الصليبيون لما يسميه المؤرخون "فرارا" لما تركوا هذه القوات تفلت من أيديهم ولأبادوا أفرادها عن أخرهم . ومن ثم يمكن القول بكل الاطمئنان أن هذا الانسحاب الذى قام به الأمير فخر الدين كان انسحابا تكتيكيا كى يتخذ من مدينة دمياط ، وبها من الرجال والذخائر والأقوات ما بها قاعدة عسكرية لعملياته ضد الصليبيين .

ومن وجهة النظر العسكرية البحتة ، يعد هذا الانسحاب عملية عسكرية ناجحة بكل المقاييس : إذ تم عبور القوات من الضفة الغربية للنهر إلى الضفة الشرقية خلال جزء يسير من الليل، والعدو على مقربة من هذه التحركات ، دون أية خسارة فى الأرواح أو العتاد ، وليس من المنطقى ولا من المقبول أن يقدم الأمير فخر الدين على إنجاز هذه المهمة ، التى عدها الصليبيون مكيدة دبرت لهم على حد قول المصادر ، ليكون هدفه الأساسى من ورائها الهروب من ميدان المعركة ، أو الإسراع إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه بالوثوب على العرش ، لأن "همته كانت تترقى إلى الملك" كما يقول ابن واصل ! ولكن الذى نميل إليه

ونرجحه أن هذا العبور كان تكتيكيا لاتخاذ دمياط مركزا متقدما حصينا للمقاومة ، حيث يعسكر الكنانية "الشجعان" المنوط بهم أصلا الدفاع عن المدينة .

والذى لاشك فيه أن فكر القائد العام للجيش ، الأمير فخر الدين ، كان مشغولا آنذاك، إلى جانب النواحى العسكرية ، بما يمكن أن تكون الأمور قد جرت عليه فى أشموم طناح، وزاد من هذا القلق أنه لم يتلق ردا على رسائله من السلطان ، وهو يعلم جيدا أن الملك الصالح قد نقل من دمشق إلى أشموم طناح فى محفة لما ألم به من مرض شديد ، وأن وفاته أو أى مكروه يضاعف من عجزه فى مثل هذه الظروف الحرجة من الناحية العسكرية، قد يقود البلاد بالتالى إلى متاهات لايعلم إلا الله مداها ، ومن ثم كان لزاما عليه أن يكون فى قلب الساحة السياسية لضبط الأمور وحسن إدارة البلاد فى ذلك الوقت ، وهذا ما سوف تؤكده الأحداث التالية كما سنوردها تفصيلا فيما بعد .

وهكذا كانت الأمور تقتضى أن يترك فخر الدين جزءا من قواته فى دمياط لتعزيز دفاعاتها، والإسراع ببقية العسكر إلى أشموم طناح حيث يرقد السلطان ، وهنا فقط انقلبت المسألة إلى الفوضى الكاملة التى عجز القائد العام نفسه عن السيطرة عليها ؛ ذلك أن العسكر الذين كان من المفروض أن يبقوا فى دمياط ، لم يقبلوا ذلك واستحثوا خطاهم فى إثر فخر الدين ومن معه باتجاه أشموم طناح ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، وتركوا مواقعهم التى وكل إليهم الدفاع عنها فى أبراج المدينة وأسوارها ، وكان طبيعيا وقد رأى أهل دمياط هذا "الفرار" الذى قام به الكنانية ، أن يغادروا بدورهم المدينة "حفاة عراة" لا يلوون على شئ ، فى محاولة للنجاة بنفسهم بعد أن رأوا مدينتهم وقد خلت تماما من القوة المكلفة بالدفاع عنها، وهذه الوقائع كلها نستقيها من المصادر المعاصرة وخاصة مؤرخنا ابن واصل .

ولنتابع معا ما جرى به قلمه حيث كتب : "ولما عدى فخر الدين والعسكر إلى البر الشرقى، رحل المعسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان"، وهذا يعنى نصا أن العسكر هم الذين حصل عندهم طمع وليس فخر الدين ، وأنهم هم الذين غذوا السير إلى حيث العسكر السلطانى ، وهذا تؤكده عبارة ابن واصل التالية مباشرة إذ يقول "فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم"[٧٤] ، ومعنى ذلك أن الأمير فخر الدين قد فقد السيطرة عليهم، وأدرك لساعته أن الأمور على هذا النحو سوف تفلت من

---

[٧٤] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ، ص ٢٦٦ .

بين يديه ، أو هى هكذا بالفعل حيث يضيف ابن واصل : "فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط"، أى لتمكنت دمياط من الصمود أمام جند لويس ، ومع أن العبارة تلمز فخر الدين من طرف خفى لمن يدقق فى كلماتها ، إلا أنها فى معناها الظاهرى تعد دليل صدق على ما نذهب إليه من أن العسكر هم الذين أحدثوا هذه الفوضى ، ولم يرتدعوا للأوامر العسكرية "بسبب ما حصل عندهم من طمع نتيجة مرض السلطان" . ولم يكن هذا أمرا جديدا على المعسكر ، بل إنهم مارسوه مع الصالح نفسه من قبل عندما كان فى الشام قبل اعتلائه عرش السلطنة فى مصر ، ومارسوه من بعد مع أميرهم فخر الدين نفسه عند وفاته على نحو ما سنبينه من بعد .

والآن .. نقدم شهادة شاهد عدل تثبت ما لا يدع مجالا للشك مطلقا صحة كل ما ذهبنا إليه عن فحوى رسائل الأمير فخر الدين وهو بعد فى جيزة دمياط ، والتعديل الذى أدخله على الخطة العسكرية السابقة وأطلع عليه السلطان قبل تنفيذه ، وعزمه على تقوية دفاعات دمياط كى تصبح قاعدة الدفاع عن الديار المصرية ، وأن الرجل لم يكن له يد مطلقا فى هذه الفوضى التى حدثت وحدثنا عنها نحن الآن ، هذه الشهادة جرت على قلم الملك الصالح نفسه فى وصيته لابنه تورانشاه ، يقول : " ... فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق[٧٥] انهزموا وسلموا لهم البر ، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط ، وهربت العوام وتبعهم الأجناد ، وكان المقدم عليهم الأخ فخر الدين ، الذى ساق خلفهم وردهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير ، فلما أصبح ما وجد فى المدينة أحدا، هربوا الكنانية فى الليل ، وكسروا الخوخ (الطاقات والنوافذ فى الحصون) ونزلوا من السور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم ، نهبوها المسلمين (هكذا) بعضهم بعض (هكذا) وأخلوا دمياط حتى أخذها الفرنج ثانى يوم"[٧٦] . ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ، ومن ثم فلسنا مبالغين حين قلنا إن ابن واصل كان يلمز الأمير فخر الدين فى قوله " لو منع العسكر ، وأقام ، لامتنعت دمياط " ، فقد فعل ابن شيخ الشيوخ أكثر من ذلك حين رتب الدفاعات على الأبواب ، " وساق وراء العسكر وردهم " ، ولكن فوضى جبلوا عليها ، و " طمعا " داعب هوى فى نفوسهم جعلهم يتخلون عن واجباتهم العسكرية .

---

[٧٥] - مفردها " حراقة " وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، انظر درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٣٢ .

[٧٦] - النويرى ، *نهاية الأرب* ، جـ٢٩ ، ص ٣٤٤ .

ولم يكن ما فعله العسكر بالأمر المستغرب وبصفة خاصة فى السنوات الأخيرة للدولة الأيوبية ، وكانوا فى معظمهم من الأكراد والأتراك والتركمان وعناصر أخرى ، ولعل هـذا هو الذى دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الاعتماد على جماعة الخوارزمية فى حروبـه مع الصليبيين فى الشام أو ضد أقاربه من البيت الأيوبى هناك ، فلما تبين له عدم التزام هؤلاء الأخيرين أيضا بالانضباط العسكرى ، عمد إلى شراء هذه الأعداد الكبيرة من المماليك الذين أصبحوا خاصة عسكره ، وغدا لهم أستاذا ، وأخلصوا له وظلوا على ولائهم التام له حـتى موته ، وكونوا من بعده دولة قوية حملت اسمهم . ولم تكن حقيقة أولئك العسكر غائبة عن الملك الصالح ، ويعبر ابن أيبك[٧٧] عن ذلك فى عبارات واضحة لا لبس فيها حين يقـول : " اشترى (الملك الصالح) من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكبر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من عدد الأكراد والخوارزمية وغـيرهم مـن الجيوش" . وما لنا نذهب بعيدا والملك الصالح نفسه كتب ذلك بقلمـه فى وصيتـه لابنـه تورانشاه حين قال : " يا ولدى ، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين ، كل من لبـس قباء وركب فرسا ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس (هكذا) ويبرطل نقيبـه وأستاذ داره[٧٨] على خبز جندى معروف بالشجاعة والحرب ، طرده أميره ، وأعطى خـبزه لذلك العامى الذى لا ينفع ، وأكثرهم على هذه الحالة ، فإذا عاينوا العدو وقـت الحاجـة هربوا ، وينكسروا العسكر ، لأنهم ما يعرفون قتال (هكذا) ولا هو شـغلهم ، فينبغـى أن لايستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنشاب والأكـرة ، وتظـهر فروسيته، حينئذ يستخدم "[٧٩] .

على هذه الحال وصلت العساكر والأجناد والكنانية والعوام وأهل دمياط إلى أشمـوم طناح حيث المعسكر السلطانى ، ومن هؤلاء الأخيرين من تفرق فى الديار المصرية ، ويصف ابن واصل الحالة من حول الملك الصالح بقوله فى إيجاز شديد : " ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكنانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم ، فشـنقوا جميعـا ،

---

[٧٧] – الدر المطلوب ص ٣٧٠ ، ويقول ابن واصل : " لما رأى الملك الصالح من غدر الأمراء به يوم أخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه لمـا فر الناس عنه بقصر معين الدين بـ " الغور " ، مال إلى مماليكه ورجحهم " ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٤ ، وراجـع تفاصيل ما كان من هؤلاء العساكر مع الملك الصالح أيوب فى ، ابن واصل ، مفرج الكروب حـ٥ ص ٢٣٣ – ٢٣٤ ، ٢٣٨ – ٢٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك حـ١ ، ص ٢٣٩ .

[٧٨] – أى المتولى شئون قصر الأمير أو وكيله .

[٧٩] – النويرى ، نهاية الأرب حـ٢٩ ص ٣٤٩ . ومن الجدير بالاهتمام أن نفرق بين تعبيرى " عسكر " و " جند " . فالمقصود بالعسـكر الجيش النظامى أو عسكر السلطان ، ويخدم أفراده بصفة دائمة ويتلقون إقطاعا ، ويحيطون بالسلطان لا يفارقونه أبدا . أما الجنـد أو الأجناد فهم جند الأمراء وعالبهم من الأكراد والأتراك ، وهم يشكلون القوات الاحتياطية أو الإقليمية ، ويخرجون إلى الحرب مقـابل اقطاعاتهم . لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع للمؤلف ، الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين ، تحت الطبع .

وتألم السلطان مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغفـلء عما فعلوه " ، أو " الصبر والتغاضى " على حد تعبير المقريزى[٨٠] .

وإذا كان الوقت لا يحتمل إلا الصبر والتغاضى عما فعله العسكر وقائدهم فخر الدين فلماذا خص السلطان قائد جيشه وعساكره فقط بصبره وتغاضيه ، ولم يتسع الصدر ليشمل هذا " الصبر والتغاضى " أيضا زعماء الكنانية ، الذين يخبرنا ابن العبرى[٨١] أن السخط عليهم بلغ بالسلطان مبلغه وأمر بشنقهم كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم " ؟! وتأتينا الإجابـــة عن هذا التساؤل فى عدد من المصادر[٨٢] تقول ، إن السلطان " شنق أمراء الكنانية – وكـلنوا نيفا وخمسين أميرا – بعد أن استفتى فى شنقهم ، لخروجهم عن الثغر بغير أمره " .

والعبارة الأخيرة توضح أمرا يختص بتكوين الجيش المصرى فى العصر الأيوبى ؛ ذلـــك ان الكنانية وغيرهم من العرب والعربان أو البدو والمتطوعة ، لم يكونـــوا ضمـــن الجيـــش الرئيسى ، أو بتعبير آخر لم يكونوا جزءا من العساكر النظامية التى تخضـــع للقـــائد العـــام للجيش ، مقدم العسكر ، ومن ثم كانوا يتلقون أوامرهم من الســـطان مباشـــرة ، ورغـــم شجاعتهم التى عرفوا بها وتحمسهم للقتال ، بل وقهورهم أحيانا واندفاعهم فى القتـــال ، إلا أنهم بسبب هذا كله كانوا يسببون كثيرا من الحرج للجيش النظامى ، وخســـائر جســـيمة لأنفسهم فى كثير من الأحيان . ولدينا على ذلك أمثلة كثيرة وبصفة خاصة علـــى عـــهد السلطان الناصر صلاح الدين ، ولذلك كان الاتهام الرئيسى الذى وجـــه إلى الكنانيـــة أن انسحابهم من دمياط وترك حصونها وأسوارها دون حماية وتخليهم عن مواقعهم بغير أوامـــر صريحة من السلطان ، مما كان سببا أساسيا ومباشرا فى سقوط دمياط غنيمة باردة فى أيـــدى الصليبيين ، فى اليوم التالى مباشرة لفرارهم منها ، وكانت تلك هى الطامة الكبرى.

لم يتوان الصالح أيوب إذن عن إنزال أقصى عقوبة تفرضها القوانين العسكرية علـــى هؤلاء الكنانية ، رغم إقرار المصادر المعاصرة واللاحقة كلها بشجاعتهم ومواقفهم الســـابقة تجاه الصليبيين، بينما كان نصيب فخر الدين من هذه العقوبات مجرد "تغـــير" الســـلطان و "الألم" الذى حل به وليس بالأمير فخر الدين !! ترى .. لو خامر الشك الســـلطان لحظـــة واحدة فى نية الهروب من ميدان المعركة لدى مقدم عسكره ، أو التآمر الكـــامن فى نفـــس

---

[٨٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك جـــ١ ص ٣٣٦ .

[٨١] – تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٩ . ولابن العبرى أيضا تاريخ الزمان ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ، وإن ذكر فى كل كتاب عددا يختلف عـــن الآخر ، إذ جعلهم فى الأول أربعة وخمسين أميرا ، وفى الثانى اثنين وستين أميرا .

[٨٢] – المقريزى ، السلوك ،جـــ١ ،ص ٣٣٦ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـــ٢٩ ، ص ٣٣٥ .

القائد العام تجاهه ، هل كان يتركه هكذا دون عقاب ، ويترك الألم يعتصره هـــو نفســه متذرعا بالصبر ، فى ظل ظروف سياسية وعسكرية بالغة السوء ؟! والأغرب من ذلـــك أن يتركه فى منصبه قائدا عاما لجيشه ، بل ويوحى صراحة على لسان المصادر ، أن الســـلطان أكد على أن يظل فخر الدين أتابكا للعسكر ، كما أخبرت عن ذلك زوجه شجر الـــدر ، وأخذت العهود والمواثيق على الأمراء باحترام ذلك حتى يحضر المعظـــم تورانشـــاه ، ابـــن الصالح، من حصن كيفا بعد أن مات السلطان ، وأخفت زوجه خبر موته إلا عن الأمـــير فخر الدين نفسه ، والطواشى جمال الدين محسن ، أقرب الناس إلى السلطان ، على حد قول ابن واصل[٨٣] . هذا كله بينما لم يتورع الصالح عن الإيعاز بقتل أخيه العادل خوفـــا مـــن أن تحدثه نفسه بالقفز على عرش السلطنة أثناء توجه السلطان إلى الشـــام ســـنة ٦٤٤هـــ/ ١٢٤٦م وكانت أوامره فى ذلك صريحة واضحة عندما وجهها إلى حسام الدين ابن أبى على نائب السلطنة فى القاهرة حيث قال : " إن مسافر إلى الشام ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى الملك العادل بقلعة مصر ، فيأخذ البلاد وما يجرى عليكم منه خير ، فإن عـرض لى فى سفرى هذا مرض ولو أنه وجع إصبع أو حمى يوم (تأمل !!) فاعدمه ، فإنه لاخير فيه لكـــم "[٨٤] . ولم يلبث الملك العادل أن وجد ميتا بالقلعة فى اليوم التالى مباشرة لرفضه الانصيـــاع لأوامر أخيه الصالح بالخروج إلى الشوبك ، ليكون بها معتقلا بعيدا عن القاهرة حالة وجـود السلطان فى الشام ، وتشير أصابع الاتهام إلى قيام الطواشى جمال الدين محسن بقتله خنقا[٨٥] . بل إن السلطان – على حد قول ابن واصل [٨٦] لم يأذن لابنه المعظم تورانشاه فى القدوم عليـــه إلى مصر ، لكراهيته له !! مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها .

والآن .. وقد أسقطنا بالأدلة الثابتة وشهادة الشهود العدول ، الشـــق الأول مـــن الاتهامات الموجهة إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والقائلة بـــ "هروبـــه" أو "فراره" من جيزة دمياط إلى المعسكر السلطانى ، وتخليه بذلك عن واجباتـــه العســـكرية ، وتفريطه وتهاونه فى الدفاع عن الديار المصرية ضد الحملة الصليبية السابعة ، نقـــول الآن .. بقى أن ننظر فى الشق الثانى من هذه الاتهامات ، وهو مكمل للأول ، باعث لـــه مـــترتب عليه!! نعنى بذلك اتهامه بالخيانة والتآمر سعيا للقفز على العرش فى ظـــل هـــذه الظـــروف السياسية والعسكرية البالغة الصعوبة والحرج، بمرض السلطان مرض الموت ، واحتلال جـــزء

---

[٨٣] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ٢٨١ .

[٨٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـــ٥ ،ص ٣٧٥ — ٣٧٦ .

[٨٥] – المصدر السابق، نفسه ،جـــ٥ ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ،جـــ١ ،ص ٣٢٧ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٥ .

[٨٦] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٩ .

من الديار المصرية على يد الصليبيين ، وسعيهم للتوغل داخل البلاد لتملكها ، وذلك اتهـــام جد خطير لن تقل عقوبته - إذا صح - عما لقيته بنو كنانة منذ قليل . وإذا كان الدليـــل العملى الوحيد الذى يساق هنا من جانب من يتهمون فخر الدين بالخيانة ، هو انسحابه من جيزة دمياط وعودته مباشرة - على حد قولهم - إلى أشموم طناح، فإن سؤالا لابد أن يقفـز إلى الذهن دون توان ، ما الذى فعله الأمير فخر الدين حالة وصوله إلى المعسكر الســلطانى؟ لماذا لم يقبض على السلطان الذى لا يستطيع حراكا ؟! لماذا لم يعزله أو يجهز عليه إذا كـــان قد جاء أصلا لهذا الغرض ؟! لماذا لم يفعل ذلك ويعلن نفسه سلطانا بدلا منه ، خاصـــة وأن الملك الصالح " لم يحزن لموته إلا القليل " ، كما تقول المصادر[٨٧] ، بينما كان الأمير فخـــر الدين محبوبا رغم خيانته ، على حد قول المؤرخين الذين يقيمون ضده هذه الدعـــوى ؟![٨٨] أتراه ترك للزمن وحده أن يتكفل بذلك والنهاية قريبة محتومة ، كما يسوق متهموه ذلـــك أيضا ؟ وإن كنا لا ندرى كيف يجتمع الناس ، وفى مقدمتهم السلطان وزوجـــه والعامـــة ، على حب رجل اتصف بالخيانة ، وسلم جزءا من البلاد للأعداء ، مـــهما بلغـــت منحـــه وعطاياه .

ومن ثم، أليست هذه كلها، علامات استفهام تحتاج إلى إجابة محددة وصريحة، حـــتى يمكن فعلا إقامة دعوى الاتهام ضد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أو إسقاطها بالكلية؟

ونتساءل أولا - هل يمكن أن يكون فخر الدين قد قطع هذه المسافة -هربا- مـــن جيزة دمياط إلى أشموم طناح ليمثل فى حضرة السلطان المسجى فى فراش المرض ، ليدخـــل الألم فقط على نفس السلطان عله يموت كمدا ؟! أو ليسمع بعض عبارات اللوم من جانبه ، والتى لم تزد عن قول السلطان، الذى يتسم بالشدة والحزم ، للعسكر" ما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"؟! هل يقبل كيل الاتهامات ضد الرجل على هذا النحو من البساطة، وليس هناك دليل واحد غير الانسحاب هذا ، والذى فصلنا فيه القول من قبل، لكن ابن واصـــل ومن سلك سبيله يتحدثون عما يظن انه كان طموحا فى نفس الأمير فخر الدين وتطلعـا إلى السلطة وشوقا إلى العرش ! ويرتبون على ذلك حدوث الجفوة بين السلطان وابـــن شـــيخ الشيوخ ، ليس فقط بسبب ما عدوه فرارا وتخاذلا كما جاء على لسان ابن واصل: "لم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة، سيما وأنه كان متألما منه لرجوعه بالعســاكر

---

[٨٧] - أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،جـــ٦ ص ٣٣٦ .

[٨٨] - جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٤١ .

من دمياط، وقاوموه بها حتى أخذها الفرنج"[٨٩]، ويردد هذه العبارة نفسها فى موضع آخر بقوله: "إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما كان يقف بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور بعده "ومرة أخرى لا ندرى كيف يمكن أن يقدم سلطان على اختيار شخص لا يثق فيه قائدا عاما لجيشه والحرب قائمة!!

نقول ليس هذا فقط الذى جعل الصالح يزاور عن فخر الدين فى رأى متهمية ، بل راحوا يؤصلون هذه الجفوة ويردونها إلى الأيام الأولى التى اعتلى فيها الصالح عرش سلطنة الديار المصرية، فيقول ابن واصل مكملا عبارته السابقة ، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب "يعرف همة فخر الدين وتعاليها ، وأنه يوم ملك السلطان مصر ، وأطلق فخر الدين (من سجن القلعة كما قدمنا) ، ركب فخر الدين ركبه عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا به ، فأوجب ذلك أن استشعر منه وألزمه داره "[٩٠] ، يعنى أنه قد خشى جانبه فقرر تحديد إقامته فى داره كما نقول بتعبيرنا الحديث ، ويضيف ابن واصل فى موضع آخر : " إن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر "[٩١] .

ومن حقنا أن نتساءل ، إذا كان السلطان قد ارتاب فى أمر الرجل منذ اليوم الأول لتملكه الديار المصرية ، بعد أن أحسن به وأخرجه من السجن ، ألم يك قادرا على أن يعيده إليه ثانية دون أية مساءلة ؟ وهو لا شك أهون عليه من أخيه العادل ، ولماذا حدد إقامته فى داره و لم يذهب أبعد من ذلك ؟ بل لعله من الطريف أن نقول إنه ذهب فعلا أبعد من ذلك ولكن فى الاتجاه الآخر، إذ أن ابن واصل كان قد أخبرنا قبلا فى موضع سابق من كتابه[٩٢] بهذه الرواية مع اختلاف يسير وإضافات قليلة ، ولكنها تحمل دلالات بعيدة وتفسيرات لما أقدم عليه ، قال : "فلما دخل الملك الصالح قلعة الجبل أخرجه ، فركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا من الناس ، لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ذلك ، فاستشعر منه ، و لم يعجبه ذلك وأمره بلزوم بيته غير مضيق عليه " ، والعبارة الأخيرة هذه " غير مضيق عليه " تشير صراحة إلى أن الأمير أصبح مطلق السراح ، يمارس حياته بصورة عادية بعد خروجه من السجن ، دون أن تقيد حريته أو يتعرض للمضايقة من جانب السلطان ، ويمضى ابن واصل فيقدم ما يمكن أن يعد توضيحا

---

[٨٩] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

[٩٠] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٣ ، وقارن جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى على مصر ص ١٠٥ ، ويقول المقريزى : " كثر تردد الناس إلى فخر الدين بن شيخ لشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن ، فكره السلطان ذلك وأمره أن يلازم داره " ، السلوك ، جـ١، ص ٣٠٩ .

[٩١] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ .

[٩٢] - ابن واصل ، مفرح الكروب ،جـ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

لمكانة أولاد ابن الشيخ عند الملك الجديد الصالح أيوب ، فيقول مواصلا حديثه بعد عبارته هذه " واستوزر الملك الصالح أخاه (أخا فخر الدين) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة ، فقام بوزارة الملك الصالح أحسن قيام ، وأما أخوهم كمال الدين فبقى على مترلته ومكانته التى كانت له فى أيام الملك الكامل "[٩٣] .

إذن فالأخوان معين الدين وكمال الدين ابنا شيخ الشيوخ يقومان بتولى أمور السلطنة ، أولهما هو الوزير ومدبر المملكة يقوم بمهامه خير قيام إلى الحد الذى جعل الملك الصالح " يقيمه مقام نفسه "[٩٤] ، والثانى حفظت له مكانته التى كانت له أيام الكامل، وجعله الصالح على رأس جيوشه العاملة فى الشام ، وكان طبيعيا أن يقيم الأخ الثالث فخر الدين فى بيته غير مضيق عليه ؛ وأخواه الآخران يدبران شئون المملكة مدنيا وعسكريا، والصالح يحتاج فى السنوات الأولى من حكمه إلى تدعيم مركزه وسلطانه ضد أبناء البيت الأيوبى فى الشام ، وأنصار أخيه العادل الثانى المعزول فى القاهرة ، ولو كان الشك يخامر السلطان فى نيات وطموح فخر الدين لما أخرجه من السجن ، ولما أنزل أخويه مترلا كريما . ومن ثم فإنه ما أن مات الأخوان كمال الدين ومعين الدين على التوالى ، حتى استدعى السطان الأمير فخر الدين ، وأحله محلهما ، ويقول ابن واصل فى ذلك، " فخلع عليه وأمره وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، ولم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره"[٩٥] ، وليس من المعقول أو المقبول أن ينعم السلطان بكل هذه النعم على رجل " استشعر منه" وخاف على نفسه من مكانته بين الناس . بل إن الصالح زاد على ذلك عندما أعطى الخلعة التى كان الخليفة العباسى المستعصم بالله قد بعث بها إلى معين الدين فوصلت بعد وفاته، إلى فخر الدين، " فلبسها الأمير فخر الدين بن الشيخ بمرسوم الملك الصالح"[٩٦] .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه هنا أيضا ، أن علاقة السلطان بالأمير كانت تعود إلى ما قبل تولى الملك الصالح عرش مصر ، ليس هذا فحسب ، أعنى أنها لم تكن مجرد علاقات عادية ، بل هى علاقة المودة والولاء من جانب فخر الدين للصالح ، فيخبرنا المقريزى[٩٧] أن السبب الذى دفع العادل الثانى إلى القبض على فخر الدين وسجنه بالقلعة ، أن ابن شيخ

---

[٩٣] – المصدر السابق نفسه والصفحات نفسها .

[٩٤] – ابن زيلك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ .

[٩٥] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٢٢ .

[٩٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤ .

[٩٧] – السلوك ، جـ١، ص ٢٨ .

الشيوخ كان يراسل الملك الصالح وهو بدمشق ، فى الفترة التى اشتد فيها الخلاف بين العادل وأخيه الصالح فهل هذا الأمير هو الذى يمكن أن "يستشعر منه السلطان"؟!

ولنمض مع مؤرخنا ابن واصل فى رحلة الحديث عن فخر الدين ، فنجده يقـــول ، فيما نحن الآن بصدده ، " فلما مات الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (أخـــو فخـــر الدين) بدمشق ، احتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشـــهامته ونجابتـــه ، فأخرجه وقدمه"[٩٨] ، ونحن نسأل ابن واصل ومن سار على هديه ، هل يمكـــن أن يوصـــف بالشهامة والنجابة من يتهاون ويتخاذل أمام الأعداء ويضمر الغدر لسيده لهوى فى نفســـه ؟! وهل يعقل أن يقدم حاكم مثل الصالح نجم الدين أيوب ، يصفه ابن واصل نفسه بأنه كان " ملكا مهيبا ، عزيز النفس ، حشما عفيفا ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ... بلـغ من عظيم هيبته أنه كان إذا خرج وشاهد المماليك صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحـــد منهم يجسر يتحدث مع أحد"[٩٩] . نقول هل يعقل أن يقدم الصالح أيوب ، وقد اجتمعت لـــه كل هذه الصفات ، على أن يقرب إليه رجلا يشك فى ولائه له منذ الأيام الأولى لاعتلائـــه العرش ، حتى لو كان فى أشد الحاجة لذكائه ونجابته وحسن مشورته ؟!

والذى يلفت الانتباه هنا أن ابن واصل عندما كان يحدثنا عن هذه الأمـــور ، يجـــئ حديثه مرسلا وكأنه خبر الوقائع بنفسه ، فإذا ما تناول فخر الدين وما يســـاور الســـلطان تجاهه ، قدم لروايته بأنه أخبر بذلك أو نما إلى علمه أو قيل له ، وكأنه يلقى بالمسئولية علـــى غيره أو يحترز فيما يرويه ، من ذلك مثلا قوله " وعلمت من جهة قريبة أخـــرى ، أقـــوى القرائن عندى ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخـــر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[١٠٠] " ، وأيضا " بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا (يعنى الانسحاب من جيزة دمياط) أمر عظيم وحنق عليه[١٠١] .

ويبدو أن هذه الجهة القريبة التى أبلغت ابن واصل وأعلمته بما كان فى كثير من هـــذه المسائل المتصلة بفخر الدين لم تكن إلا الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة فى القاهرة[١٠٢] ، وكان هو الآخر مقربا من السلطان الصالح أيوب ، ومن ثم كـــان

---

[٩٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .

[٩٩] – المصدر السابق ، نفسه ، ص ٢٧٥ ؛ وراجع أيضا: أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـــ٦، ص ٣٢١ – ٣٢٤ .

[١٠٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٣ .

[١٠١] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٤ .

[١٠٢] – جرى ذلك بقلم ابن واصل فى بعض المواضع حين يقول صراحة : " أخبرنى بهذا كله الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبـــانى " ، مفرج الكروب جـــ٥ ص ٢٥٥ ، بينما تتكرر كثيرا عبارة " فحكى لى حسام الدين بن أبى علـــى " ، مفـــرج الكـــروب جـــ٥ ص٣٦٢، ٣٦٩ ، ٣٧٥ وغير ذلك من الصفحات .

هو وفخر الدين رجلى الدولة المسئولين عن كل أمورها ، يعتمـــد عليـــهما الســـلطان فى تصريف أمور دولته ، وبينما كانت نفس ابن واصل تنطوى على شئ من عدم الارتياح تجاه القائد العام للجيش الأمير فخر الدين ، رغم ثنائه عليه فى أكثر من موضع ، إلا أنه هو الذى تزعم حملة الاتهامات ضده فى الوقت نفسه ، كان من ناحية أخرى يحمل كل المودة والتقدير للوزير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى ، حيث كانت تربط بينهما صداقة وطيدة تعود إلى زمن بعيد منذ كان ابن واصل يطلب العلم فى دمشق عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م[١٠٣] عندمـــا ألقى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق القبض على حسام الدين مع جماعـــة من أنصار الصالح نجم الدين أيوب ، كان الملك الناصر داود صاحب الكـــرك قـــد أطلـــق سراحهم ، وأمر الصالح إسماعيل أن يؤخذ جميع ما كان معه (مع حسام الدين) وجعل رجله قيدا وحبسه فى حبس الخيالة بقلعة دمشق ، قال ابن واصل معلقا على ذلك " فأقام حســـام الدين فى حبس الخيالة ، وكنت أصعد إلى القلعة واجتمع به فى الحبس فى أكـــثر الأوقـــات "[١٠٤]

وعندما ظهر أمر الصالح نجم الدين أيوب ، تحسب عمه الصالح إسماعيل للأمر ، فقـلم بنقل حسام الدين إلى قلعة بعلبك ، واعتقله فى جب وضيق عليه غاية التضييق ، على حـــد قول مؤرخنا الذى بعث به حسام الدين إلى القاضى بدر الدين قاضى سنجار ، وإلى محـــيى الدين بن الجوزى ، رسول الخليفة المستنصر بالله ، للتوسط بينه وبين الملك الصـــالح عمـــاد الدين إسماعيل صاحب دمشق ليطلقه من الحبس ، غير أن هذه الوساطة لم تـــؤت ثمارهـــا المرجوة ، وظل الأمير حسام الدين فى محبسه هذا حتى أطلق الصالح إسماعيل ســـراحه بعـــد ذلك فى عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[١٠٥] .

و لم تلبث أواصر الصداقة بين حسام الدين بن أبى على الهذبانى وجمال الديـــن بـــن واصل أن راحت تزداد رسوخا بعد مجئ مؤرخنا إلى مصر ، وما لقيه من الحفاوة والتكـــريم على يد نائب السلطنة حسام الدين ، وسوف أترك القلم هنا لابن واصل ليقص علينا بنفســه كيف كان ذلك ، يقول " وكان دخولى إلى القاهرة فى المحرم من هذه السنة (٦٤١هـــ / ١٢٤٣م) ، واجتمعت بالأمير حسام الدين بن أبى على ، وكان السلطان الملك الصالح (نجم

---

[١٠٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٤ .

[١٠٤] - المصدر السابق ،جـ٥ ، ص ٢٤٣ .

[١٠٥] - المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ ، ٣٢٨ .

الدين أيوب) قد أنزله فى الدار المعروفة بدار الملك[١٠٦] على شاطئ نيل مصر فى مدينة مصر ، وهى دار عظيمة من آدر خلفاء مصر (الفواطم) ليكون قريبا منه ، فإن السلطان كان نـازلا فى قصوره بقلعة الجزيرة ، وهى القلعة التى أنشأها بالجزيرة (الروضة) ، وكان عنده (يعـنى حسان الدين) فى أعظم المنازل ، وأعطاه خبزا جليلا ، فأحسن إلى وأنزلـنى فى داره الـتى بالقاهرة ، وهى دار جليلة بدرب الديلم[١٠٧] وأدرنى إنعامه وإحسانه "[١٠٨] . وعلى هذا النحو الذى فصله مؤرخنا ندرك إلى أى مدى كان حسام الدين يطوق عنق ابن واصـل بجميـل نعمائه وإحسانه ، ولا غرابة أن يحاول ابن واصل رد هذا الجميل .

وقد أفصح ابن واصل تماما عن مكنون نفسه تجاه قطبى الدولة فى عهد الملك الصـالح نجم الدين أيوب ، نعنى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر ، والأمـير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . وجاءت عباراته عن الرجلين واضحة كل الوضوح فى الإقرار بفضل الحسام عليه ، والتحامل على فخر الدين مما أدى إلى وقوفـه أمام محكمة التاريخ ! وسوف نورد هنا بعضا مما سجله قلم ابن واصل ، يبين بما لا يـدع مجالا للشك أن هوى مؤرخنا كان مع الحسام ، يقول " ولم ينص (الملك الصالح نجم الديـن أيوب) على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج الأمر عن حسام الدين محمد بـن أبى على ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، فلـم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة "[١٠٩] . ولو أن الأمر اقتصر فى الحديـث على حسام الدين فقط ، لكان من الممكن أن يمضى

---

١٠٦ – " وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ن بدأ فى بنائها وإنشائها سنة ٥٠١هـ / (١١٠٧ – ١١٠٨م) ، فلما كملت تحول إليـها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر ، فصارت بها وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سمـاه مجلـس العطايا كان يجلس فيه ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، ومـا زالـت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة (الفاطمية) ، فجعلها الملك الكامل دار متجر ، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقـدارى دار وكالة " . راجع المقريزى ، الخطط جـ١ ص ٤٨٣ .

١٠٧ – عرفت بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة مـن الديلـم والأتراك فى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م . فسكنوا بها فعرفت بهم " راجع المقريزى الخطط جـ٢ ص ٨ – ٩ ، والديلم نسبة إلى المنطقـة التى قدموا منها ، منطقة الديلم وهى جزء من بلاد فارس تقع جنوبى بحر قزوين .

١٠٨ – ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٥ ، ص ٣٣٤ .

١٠٩ – المصدر السابق ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

قول ابن واصل دون إثارة أى تساؤل ، فقد كان حسام الدين فعلا من المخلصين المقربين إلى الصالح ، أما إقحام اسم فخر الدين هنا دون داع يستدعيه الحديث ، فلابد أن يبعث عند أى باحث عوامل القلق ، إذ أن المقارنة هنا بين الرجلين من جانب ابن واصل متعمدة ومقصودة لذاتها، وليس هناك ما يستوجب الإتيان بها على هذا النحو ، وإن كان ما يقوله هذا يدفعنا إلى الدهشة مرة أخرى ، إذ كيف لا يثق الصالح بفخر الدين كل الثقة وبعهد إليه بقيادة الجيش فى أحلك الظروف ؟!

ويعود ابن واصل ليؤكد هذا المعنى مرة ثانية فى موضع آخر حين يقول : " ثم جرى من فخر الدين يوسف ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمر عظيم ، وحنق عليه ... فتحقق عندى من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على "[١٠٩].

ولعل هذه العبارات وما شابهها تكشف جانبا هاما من تحامل ابن واصل على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وتوضح أن ابن واصل كان بكل قلبه وجوارحه ، مع الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وكان يتمنى أن يعهد إليه السلطان بأمور البلاد من بعده أو يوصى بذلك ، بل ذهب مؤرخنا أبعد من ذلك عندما أشار صراحة إلى كراهية الملك الصالح نجم الدين أيوب لولده غياث الدين تورانشاه ، الذى عرف بالملك المعظم ، لما كان فيه على حد قول ابن واصل من "هوج واضطراب"[١١٠] ، ويمضى قائلا : " وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكراهته لابنه المعظم ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولى عهده إذا مات ، وبلغ من كراهته له ما أخبرنى به الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى "[١١١] .

وقد فات على ابن واصل ما ذكره فى كتابه فى موضعين[١١٢] من أن السلطان أوصى فعلا بما يجب أن يتم حالة وفاته، وأنه ترك هذه "الوصية الشفهية" مع وزيره حسام الدين حين قال له يوما: "إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله (العباسى) ليرى فيها رأيه ". وفى الموضع الثانى يقول : "وكان السطان الملك الصالح لا

---

[١٠٩] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٨٤ .

[١١٠] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٨ .

[١١١] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٧٩ .

[١١٢] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٩ ، ٢٨٤ .

يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على ، حتى أنه فى السفرة الأولى (يعنى ذهابه إلى الشام) قال له (أى للحسام) إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى فى قلعة الجبل (يقصد العادل الثانى الذى قدمنا ما كان من أمره) ، فربما استولى على الأمر فيهلكهم ، وذكر لى أشياء شتى مما لايمكننى أن أسطره " !! وقال له مرة أخرى : " إن حدث موت ، فسلم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " !! هكذا - كما يخبرنا مؤرخنا - أفصح الملك الصالح لوزيره عن مكنون نفسه ، وأنه ليس فى نيته أن يعهد لأحد من بعده بالسلطنة وأنه ترك هذه المهمة الثقيلة للخليفة العباسى - هذا ما يقوله ابن واصل ، وسوف يكون لنا عود إليه ثانية لمناقشته فيما يرويه .

أما الآن فعلينا أن نشد الرحال إلى القصر السلطانى بالمنصورة بعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كتمت زوجه شجر الدر خبر وفاته إلا عن الأمير فخر الدين مقدم العسكر ، والطواشى جمال الدين محسن ، والطيب فتح الدين . وكان أول إجراء أقدمت عليه شجر الدر ، بنص كلمات ابن واصل بالحرف الواحد : " ثم أحضرت (شجر الدر) الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم إن السطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم (تورانشاه) بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدم على العسكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة . فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلفوا الأمراء والأجناد ومماليك السلطان "[113] . ولم يرد هنا ذكر مطلقا للوزير حسام الدين محمد ابن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . ولم يكن من بين من تم اختيارهم ليؤتمن على كتمان خبر موت الملك الصالح ، رغم ترشيح مؤرخنا له ليكون الأحق بتدبير أمور الدولة بعد رحيل السلطان !!

والسؤال الذى ألحفنا فى طرحه سابقا ما زال قائما ، هل يمكن أن تقدم شجر الدر، زوج السلطان الراحل، على أن تخص الأمير فخر الدين بخبر وفاة زوجها . وائتمانه على هذا السر ، إلا لكونها تعلم عنه من زوجها أنه كان موضع سره ومستشار أمره ؟ بل كيف تقدم على اختياره أتابكا للعسكر ، أى تثبيته فى منصبه الذى كان قد وضعه فيه الصالح ، ثم تعهد إليه إضافة إلى ذلك بتدبير المملكة ، إذا لم تكن على يقين من أنه كان موضع ثقة زوجها، وأنه خليق بحمل المسئولية والاضطلاع بها فى ظل هذه الظروف السيئة التى تحيق بالديار المصرية ؟ وشجر الدر مشهود لها من كل المؤرخين المعاصرين بالحكمة وحسن التدبير . ثم إذا كان الأمير فخر الدين يبتغى حقا القفز على عرش السلطنة ، ألم تكن هذه هى الفرصة

---

[113] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٢ .

المناسبة التى جاءته تسعى ، وما كان عليه إلا أن يفترصها ليغدو بين يوم وليلة سلطانا للديار المصرية ، وأن الأمراء والعساكر والأجناد قد "حلفوا" على السمع والطاعة ، وأعلنوا رضاءهم على هذا الاختيار ؟ أم تراه كان يؤخر هذا الأمر حتى يقدم الملك المعظم تورانشله إلى مصر ، فيدخل معه فى معركة حول العرش ؟ وهل يعقل هذا ؟ وابن واصل يخبرنا بما تم عليه الأمر فى هدوء تام يعود إلى حكمة شجر الدر وخاصة السلطان الراحل ، ودقة الموقف فى مصر ، يقول : " واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير الملكة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا ، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك "[١١٤] . ولنتأمل معا أن ابن واصل أورد اسم فخر الدين هنا وما عهد إليه من الأمر مرتين فى أربعة سطور فقط ، وصدرها بقوله " واتفقوا جميعهم " ، بمعنى أن هذا كان يلقى استحسان الجميع .

هذا الرجل ، الأمير فخر الدين ، وضعت المقادير بين يديه كل مقاليد السلطة فى مصر! فالسلطان الصالح نجم الدين مات وفخر الدين هو مقدم الجيش ، وشجر الدر زوج السلطان الراحل أبقته فى منصبه ، وأخذت له العهود والمواثيق بالولاء من الأمراء والعساكر والأجناد ، وعهدت إليه فوق هذا بتدبير أمور المملكة ، ولم يبق -إن شاء- إلا أن يعلن نفسه سلطانا ، ولكنه لم يفعل ! ترى ... هل كان انسحابه من جيزة دمياط إذن لرغبته الجامحة -كما قيل- فى اعتلاء عرش السلطنة ، حيث كانت نفسه -كما قيل أيضا- تطمع فى هذا الأمر ؟! هذا قول يرفضه أى تفكير منطقى ، بل لعل الدليل العملى القاطع على تبرئة فخر الدين من التهم المنسوبة إليه ، يقدمه لنا ابن واصل نفسه فى قوله وهو يرثيه " كان أميرا فاضلا ، عالما متأدبا ، جودا سمحا ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان فى اخوته مثله ، بل ولا فى غير اخوته " !![١١٥] ، وهذا يعنى أن ابن واصل ، مع كل ما قاله عن طموحه للسلطة وطمعه فيها ، لم يملك إلا أن يجعله أفضل الناس فى زمانه ، بحيث لم يكن فى اخوته ولا غيرهم من الناس مثله ، ولابد أن يكون حسام الدين بن أبى على الهذبانى ضمن هؤلاء الغير . أما النويرى فيذكر أن جماعة من الأمراء المماليك الصالحية تنكروا للأمير فخر الدين بن الشيخ ، وعزموا على قتله لدسيسة وصلت إليهم ، فاستدعاهم " وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل "[١١٦] . ويكمل سبط بن الجوزى

---

[١١٤] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨١ .

[١١٥] - المصدر السابق نفسه ص ٢٩٣ .

[١١٦] - النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٨ .

هذه الصورة بقوله : " وحسد الجند فخر الدين وعزموا على قتله ونهـــب داره ... وكـــان المتهم بذلك الخادم محسن (يقصد الطواشى جمال الين محسن)[١١٧] وهكذا أضيف إلى قائمـــة المتربصين به واحد آخر من رجال الدولة . أما ابن كثير[١١٨] فيقول : " وكان (الأمير فخـــر الدين) فاضلا دينا مهيبا، وقورا بالملك، كانت الأمراء تعظمه جدا، ولو دعاهم إلى مبايعتـــه بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك، حماية لجانب بنى أيوب"، ويضع أبو المحاسن[١١٩]، اللمسات الأخيرة فى هذه الصورة الدالة على الولاء والوفاء من جانب فخـر الدين للصالح وبنى أيوب فيقول: "كان عاقلا جوادا ممدحا مدبرا خليقا بالملك محبوبـــا إلى الناس، ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب... ندب إلى الملك فامتنع، ولو أجـــاب لمـــا خالفوه". وهذه العبارة الأخيرة بنصها ذكرها من قبل المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى.

ولا يمكن مطلقا أن تجتمع كل هذه الأقوال فى رجل راودته نفسه يوما ما عن عـــرش السلطنة ، وحدثته بأن يترك واجبه فى ميدان المعركة وهو القائد العام ليستولى على الســـلطة من ملك يعالج سكرات الموت فى مرضه الأليم ! بل لقد ندب إلى الملك فأبى ولو شاء لكـــان له ما أراد، لكن نفسه المطمئنة ما كانت تنطوى إلا على الوفاء النادر لبنى أيوب ، بحيـــث لم يكن هناك فى زمانه من له بين الناس خصاله ، على حد قول مؤرخنا ابن واصل .

ومن الجدير بالذكر هنا استكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه الآن ، القـــول إن شجر الدر بعثت إلى القاهرة بما تم الاتفاق عليه فى المنصورة ، ليعلن على الجميع ما اتخذ مـــن قرارات فى هذا الشأن . يقول ابن واصل : " ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، بأن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة على ما وقع التحليف عليـــه بالمنصورة ووقع التحليف على النحو المذكور "[١٢٠] .

ولعل عبارة وردت عند ابن واصل[١٢١] تجعل من كل ما قاله قبلا عن إيثار الصالح نجم الدين أيوب لوزيره حسام الدين ، يذهب مع الريح ، يقول : " وبولغ فى كتمـــان مـــوت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير فى الدولة أو صغير ، حتى على الأمير حســـلم الدين محمد بن أبى على ، نائب السلطنة بالديار المصرية (!!) وكانت الكتـــب تـــرد مـــن المعسكر (المنصورة) إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان ... وكان حسام الدين محمد بـن أبى

---

[١١٧] – سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان حـــ٨ ص ٧٧٦ .
[١١٨] – البداية والنهاية حـــ١٣ ص ١٧٨ .
[١١٩] – النجوم الزاهرة ،حـــ٦، ص ٣٣٦ .
[١٢٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٢ .
[١٢١] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٣ .

على يظن أن السلطان حى ، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه " (!!) ، ولو كان الأمـر كما يقول ابن واصل متمنيا ، لعُهد إلى حسام الدين فى ذلك المرسوم بتدبير أمـــور الملـــك لكونه الأقرب إلى ذلك باعتباره نائب السلطنة . والغريب فى الأمر أن مؤرخنـــا يقـــول فى الفقرة التالية مباشرة " إن السلطان ما كان يثق فى الأمير فخر الدين بالثقة التى توجـــب أن يفوض إليه الأمور من بعده " !! فكيف يمكن قبول هذا التضارب فى أســـطر متتاليـــات ؟! ومرة أخرى لو كان الأمر كما يقول ابن واصل ، لانتقلت عدوى عدم الثقة هـــذه مـــن السلطان قبل موته إلى زوجه شجر الدر ، ولتم إقصاء فخر الدين عن موقعـــه ، هـــذا إذا افترضنا أصلا عجز السلطان عن القيام بذلك .

وقد ظلت المراسلات تدور بين الأمير فخر الدين أتابك العسكر ومدبر الأمـــور فى الدولة وبين حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، فى ظل وإطار المودة الظاهرة والمجاملـــة الرقيقة من كل منهما تجاه صاحبه ، مثل ، من " فخر الدين الخادم يوسف " ومن " حســـام الدين المملوك أبو على بن أبى على ، وبينهما مجاملات فى الظاهر "[١٢٢] .

وملأ ابن واصل ، والمؤرخون من بعده نقلا عنه ، الدنيا ضجيجا بما فعله الأمير فخـر الدين طيلة خمسة وسبعين يوما قام خلالها بتدبير الأمور فى السلطنة ، فيقول ابـــن واصـــل: "... وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال بالأمر، إن تعذر وصول الملك المعظـــم، وصار لفخر الدين موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ويحضرون لسماطه "[١٢٣] . ونتساءل ، ما الذى كان يتوقعه ابن واصل من رجـــل عهد اليه رسميا بـــ "التقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة " ؟ أليـــس كل ما "يشنع" به ابن واصل هنا على الأمير فخر الدين هو ما تتطلبه هيبة هذه المناصب التى يتولاها وتقاليدها ؟ وهل كان من المفروض أن يقبع الرجل فى مقر قيادته بمعسكر المنصـــورة محتجبا عن الأمراء والعساكر والناس ؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا الاتهام الذى لا يخلو من طرافة ، بل امتـــد ليشـــمل فى الإطار نفسه أن فخر الدين "شرع فى إطلاق المحبوسين ، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم " ، وكان من بين هؤلاء جمال الدين بن مطـــروح ، الذى كان نائب السلطنة فى دمشق ، والشاعر بهاء الدين زهير الذى رده إلى منصبه ، يعـــنى ديوان الإنشاء ، ولسنا فى حاجة إلى القول أن الأمور بعد وفاة الصالح ، وإن كان خبر ذلك

---

[١٢٢] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٧ .

[١٢٣] المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ وراجع حاشية ٥٣ .

ما زال سرا ، كانت تقتضى الاستعانة برجال يكنون لمدبر المملكـــة الاحـــترام ، ويمكـــن الاعتماد عليهم فى تصريف الأمور ، خاصة إذا علمنا أن الأسباب التى من أجلـــها اســـتغنى الملك الصالح عن خدمات هذين الرجلين ، ابن مطروح والبهاء زهير ، لم تكـــن شـــكا فى ولائهما ، وإلا كان مصيرهما غير ما آل إليه[١٢٤] .

واحتوى هذا الجزء من الاتهام نقاطا أخرى مفادها أن الأمير فخر الدين " أخـــذ فى التصرف فى الأموال ، فأطلق منها جملة، وخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام"[١٢٥] ، ولا نملك تعليقا على جملة ما احتواه هذا الاتهام الأخير إلا أن نسوق هنا نص ما قاله سبط بن الجوزى[١٢٦] فى ذلك : " ... ولما وصل تورانشاه (إلى مصر) أخذ ممـــاليك فخر الدين الصغار وبعض قماشه بنصف القيمة ، ولم يعطهم درهما ولا عوض الورثة شيئا ، وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار . وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين ســـيئات ، يقول ، أطلق الكتان والسكر وأنفق الأموال ، فإيش ترك لى أنا (!!) " ، وهكذا لم يكـــن فعل فخر الدين هذا إلا حسنات حسده عليها تورانشاه ، وطفحت غيرته الشـــديدة علـــى لسانه ! ويضيف ابن الجوزى معلقا فى سخرية لاذعة : " فكان حفظ فخر الدين للملـــك وسياسته للعسكر ومقاتلته للأعداء من أكبر ذنوبه !!

---

[١٢٤] – عن سبب غضب الملك الصالح على البهاء زهير راجع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـــ٦ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ . ومن المعـــروف أن بهاء الدين زهير كان مولعا بحب مصر وتيلها ، لا يعدلهما عنده أى شئ آخر . حتى قيل فيه إنه " مصرى المنشأ ، مصرى الـــروح ، مصرى العاطفة " . وهو الذى أنشأ الرسالة التى بعث بها الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك لويس التاسع عنـــد قدومـــه فى أول الأمر الى الديار المصرية ، والتى أتينا على ذكر منها من قبل . أما الشاعر والسياسى جمال الدين يحيى بن مطروح فقد قـــام بخدمـــات جليلة من الناحيتين السياسية والعسكرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، بحدها مبسوطة عند المقريزى فى الســـلوك ،جـــ١، ص ٢٨٤ – ٢٩٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، حتى أصبح من أرباب السيوف والقلم ، ولم يذكر المقريزى شيئا أكثر من قوله . وفى ســـنة ٦٤٦هـــ "عزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق " دون أن يورد أسباب ذلك ، ولكنا نعلم من قصيدة جميلة قالها ابـــن مطروح مستعطفا الصالح ، أن ما جرى له كان نتيجة لسعى الوشاة والحاقدين جاء فيها :

من مبلغ عنى المليك الأروعا	عن عبده يحيى مقالا مقنعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح	مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ولطالما جريتنى فوجدتنى	أحدى من الملأ الكثير وأنفعا
فعلام بعد الاصطفاء نبذتنى	نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حقى كلاما معاشر	أقصى مناهم أن أبيت مضيعا

وقد نظم ابن مطروح قصيدة طريفة عندما ترددت أنباء اعتزام لويس التاسع العودة الى مصر فى حملة جديدة . بعد هزيمتـــه الســـاحقة فى الحملة الصليبية السابعة التى قاده ، وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، وحذره فيها من سوء المصير الذى ينتظـــره إذا رام فى ذلـــك جاء فيها :

قل للفرنسيس (الملك) إذا جئته	مقال صدق عن قنول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

عن حياة وأدب بهاء الدين وجمال الدين يحيى بن مطروح ، راجع ، محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ٥١٧ – ٥٤٠ .

[١٢٥] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـــ١ ، ص ٣٤٤ .

[١٢٦] – مرآة الزمان ، جـــ٨ ، ص٧٧٧ .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أيضا أن الأمير حسام الدين الهذبانى ظل على اعتقاده أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما زال حيا ، طالما كانت المكاتبات ترد إلى القاهرة من المنصورة ممهورة بتوقيع السلطان، ولم يفق من هذا "الوهم" إذا صح هذا التعبير إلا على يد مؤرخنا جمال الدين ابن واصل الذى اكتشف بفراسته فى التمييز بين الخطوط ومعرفتها، وأقسم بـ "الله العظيم" على صحة ما يقول من مضاهاة الرسائل الواردة من المنصورة إلى نائب السلطنة بالقاهرة ببعضها، "فتبين مخالفة الخط للخط"، ثم يقول ابن واصل، وهذا هو بيت القصيد، "فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته، وأخذ فى التبيين عنه، والكشف من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر، فتحقق موته. وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك، ويستبد به لنفسه، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"[١٢٧].

هكذا فى لحظة من لحظات الصدق مع النفس، كشف مؤرخنا عن حقيقة مكنون نفس صديقه الأثير الأمير حسام الدين، وما يعتمل فى صدره تجاه الأمير فخر الدين مما دفع نائب السلطنة إلى "الخوف الشديد" من أن "يستبد" ابن شيخ الشيوخ بالأمر دونه، فيصبح من بعد نسيا منسيا! ويعلق المقريزى[١٢٨] بذكاء على ما كان من حسام الدين بقوله "فاحتاط لنفسه".

وهذا ينقلنا تلقائيا إلى النقطة التالية حتى تكتمل الصورة وضوحا ، نعنى جماعة القصاد الذى تم إرسالهم من معسكر المنصورة لإحضار الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح من حصن كيفا فى ديار بكر ، ويصر ابن واصل على أن يؤكد فى كل فقرة هنا مدى طمع الأمير فخر الدين فى القفز على عرش السلطنة ، والسعى نحو ذلك حثيثا ، فيظهره بمظهر الكاره لهذا الإجراء حين يقول " وما أمكن فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك "[١٢٩]، مع إنا نعلم من ابن الجوزى[١٣٠] وهو معاصر لتلك الأحداث ، شأن ابن واصل ، وكذلك يخبرنا ابن أيبك[١٣١] والمقريزى[١٣٢] أن فخر الدين بعث بالقصاد إلى تورانشاه يستحثه على الحضور لتولى زمام الأمور . وكان على رأس من بعث بهم القصر السلطانى فى المنصورة الأمير فارس الدين أقطاى ، ولم يكن حسام الدين بالذى ينتظر الغير يقررون له المصير، ومن

---

[١٢٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ، وقارن ما جاء بهذا الخصوص عند المقريزى ، السلوك ، جـ١، ص ٣٣٩ .

[١٢٨] – المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٤ .

[١٢٩] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

[١٣٠] – مرآة الزمان ،جـ٨ ، ص ٧٧٦ .

[١٣١] – الدر المطلوب، ص ٣٧٣ .

[١٣٢] – السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .

ثم فإنه عملا بمبدأ " الحيطة والحذر " كما أشار المقريزى ، بعث هو الآخر من لدنه رسولا من مماليكه الخواص يعرف بـ " زين الدين العاشق " ، إلى تورانشاه يرجوه سرعة الحضور خوفا من أن تخرج البلاد من يده[١٣٣] ، ولم يكن هذا الايحاء الأخير إلا لينسحب على الأمير فخر الدين ، وفى الوقت نفسه قام حسام الدين بالقبض على الملك المغيث ان الملك العادل الثانى ، وسجنه فى القلعة ، " وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه ، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه ، مخافة أن فخر الدين ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ويديرها باسمه (أى المغيث) الذى كان عمره آنذاك أربعة عشر عاما[١٣٤] ، ويضيف ابن واصل صراحة أن رسول حسام الدين وصل إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظم، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له: "إن تأخرت فات الأمر، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل"[١٣٥]. ولعل هذا يعيد إلى الأذهان ما ذكره مؤرخنا سابقا عن الخوف الذى تملك حسام الدين خشية أن يقفز فخر الدين إلى عرش السلطنة بعد أن تيقن الحسام من موت الملك الصالح.

وحتى تكتمل هذه الصورة تماما، نواصل رحلتنا مع حديث ابن واصل حتى ندرك حقيقة الاتهامات التى كالها للأمير فخر الدين ، وموقف الأمير الوزير حسام الدين ، الذى كان مؤرخنا يرشحه ليكون خلفا للملك الصالح . يقول مؤرخنا : " لما تواترت الأخبار بقرب وصول الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية ، خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه ، وخرجت أنا فى صحبته ، (وهذا يوضح مدى العلاقة التى كانت تربط بين حسام الدين وابن واصل ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ومحاولة ابن واصل فى الوقت نفسه التعرف إلى تورانشاه) ، فالتقيناه بالصالحية ... وخلع الملك المعظم بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفا محلى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرسا من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ، فلبس الأمير (حسام الدين) الخلعة وقبل حافر الفرس ، وركبه"[١٣٦].

وهكذا " احتاط حسام الدين لنفسه " كما يقول المقريزى ، وأفلحت سعايته تماما فى إيغار صدر تورانشاه على فخر الدين قبل أن تطأ قدم المعظم أرض مصر ، ولم ينقذ فخر الدين من بطش تورانشاه وأعوانه وانتقامهم جميعا منه إلا استشهاد ابن شيخ الشيوخ قبل

---

[١٣٣] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٦ .
[١٣٤] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .
[١٣٥] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .
[١٣٦] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

مجئ المعظم. وكان الذى ساعد حسام الدين على أن ينال الحظوة لدى تورانشاه ، ويحصل على خلعه وهداياه كما رأينا ، إلى جانب اقناعه بسرعة الحضور إلى مصر قبل أن تفلت الأمور من بين يديه بزعمه ، أنه كانت تربط بين الرجلين ، تورانشاه وحسام الدين علاقات قديمة منذ أنعم الملك الصالح على ولده هذا بحصن كيفا ، وأمر حسام الدين أن يقيم معه أتابكا له[١٣٧] . ومن ثم لم يجد نائب السلطنة فى القاهرة صعوبة فى استغلال هذه العلاقة القديمة لمصلحته الخاصة و "الاحتياط لنفسه" ، ولو أن الأمير فخر الدين كان يضمر السوء حقا للمعظم تورانشاه ، لأوعز إلى أحد من ملوك بنى أيوب فى الشام ، أو لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، بصفة خاصة ، وكلهم كان يمتلئ بالكراهية الشديدة لتورانشاه لطيشه وسفه وتكبره ، ولتم القبض عليه أثناء قدومه من كيفا فى أعالى العراق إلى مصر ، ولكن فخر الدين لم تحدثه نفسه بمثل ذلك ، لأنه كما قال ، " كان يحفظ الملك لابن سيده " .

والآن .. ترى من الذى يسعى إلى السلطة حثيثا ، والى أن يظل دوما فى دائرة الضوء ؟ الأمير فخر الدين الذى ظل فى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ثم المنصورة ، يعد العدة مع الصالح أيوب أولا ، ثم متحملا المسئولية كاملة ، أتابكا للعسكر ومدبرا للملكة ، فى مواجهة الغزو الصليبى ، أم الأمير حسام الدين الذى كان يتملكه الخوف من أن ينفرد فخر الدين بالسلطنة – على حد تعبير صديقه ابن واصل ، حتى أنه بذل كل ما فى وسعه لحث المعظم ليسرع بالعودة إلى مصر ، موغرا صدره على فخر الدين ، ثم كان فى أول مستقبليه عند عودته ، فكان من أمر الهدايا والخلع التى خلع عليه ما كان على النحو الذى رأينا . ولعل هذه الصورة تظهر أكثر وضوحا إذا عدنا إلى معسكر المنصورة لنرى الأمير فخر الدين يؤدى واجبه العسكرى المنوط به حتى آخر لحظات عمره . وأى شئ أكبر شهادة مما يقوله مخاصمه ابن واصل نفسه : " وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب (الأمير فخر الدين) دهشا غير مستعد ولا متحفظ (دون أن يتدرع) ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ... وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه "[١٣٨] ، ويضمن ابن واصل حديثه هذا كثيرا من الصفات النبيلة التى يخلعها على فخر الدين ، والتى جئنا على ذكرها من قبل وإن كان يغتسل فى الحمام " ، فيبدو مشغولا بنفسه عن جيشه ، وهذا أمر يفنيه مؤرخ معاصر آخر وهو سبط

---

[١٣٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ١٨٩ – ٢٠٩ .

[١٣٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٩٣ ، ويورد ابن أيبك العبارات نفسها ، الدر المطلوب ، ص ٣٧٦ وكذا المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٩ .

بن الجوزى[١٣٩] حيث يقول : " ... فركب فخر الدين وقت السحر ليكشف الخبر ، وأنفذ إلى الحلقة (جند الحلقة) والأمراء ليركبوا ، وساق جريدة معه بعض مماليكه وأجناده ، فالتقى طلب (كتيبة) الداوية مصادفة فحملوا عليه ، فهرب من كان معه ، وثبت هو ، فطعنوه فى جنبيه ، فوقع عن فرسه ، فضربوه ضربتين فى وجهه طولا وعرضا بالسيف وقتلوه .. وكان له من العمر يوم مات ست وستون سنة ، رحمه الله تعالى " . وهكذا جاءت نهاية فخر الدين فوق جواده فى ميدان المعركة .

وحتى تتضح الصورة تماما ، ونقف على كل ما فعله الأمير فخر الدين ، باعتباره قائدا عاما للجيش ، قبل أن يلقى الشهادة فى جديلة ، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا ، نعنى منذ تلك اللحظة التى قرر فيها الصليبيون الخروج من دمياط والزحف جنوبا ابتغاء القاهرة ، وقد بدأ هذا الزحف فعلا فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ ، ولم يكد يمضى على ذلك يومان حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وغدا فخر الدين صاحب السلطنة الفعلية فى الديار المصرية ، ولكن الرجل - كما علمنا - آثر أن يجعل شغله الشاغل مدافعة هذه القوات الغازية ، وتعطيل حركتها ، فى محاولات مستميتة لإخراجها من مصر ، ومن هنا كانت إقامته وسط جنوده فى معسكر " جديلة " ، الموقع المتقدم لحماية المنصورة .

وفى الرابع والعشرين من شعبان ٦٤٧هـ / الثانى من ديسمبر ١٢٤٩م دخل الجيش الصليبى مدينة فارسكور ، الواقعة على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا جنوبى دمياط ، وهذا يعنى أنها قطعت هذه المسافة البسيطة فى ثلاثة عشر يوما ، ولعل المجارى المائية العديدة التى تمتلئ بها المنطقة كانت السبب فى بطء حركة الزحف الصليبى ، حيث يخبرنا " جوانفيل " أنه كان عليهم أن يتوقفوا كثيرا ليتم ردم بعض هذه المجارى المائية .

وهنا وحتى نهاية عمره ، يظهر جهد الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، تخطيطا وتنفيذا فى الجانب العسكرى ؛ فقد تم إعداد كمين من قوة الفرسان جنوبى فارسكور ، ولما كانت القوات الصليبية الزاحفة تفوقها عددا ، فقد أبرق قائدها إلى الأمير فخر الدين يخبره بسقوط فارسكور ، وعلى الفور كتب القائد العام بذلك إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، يوقفه على هذه الأحداث ، ويطلب إليه الدعوة إلى النفير العام ، أو إعلان التعبئة العامة .

---

[١٣٩] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٧٧٦ - ٧٧٧ ، ويورد عباراته نفسها النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٣٩ .

وفى خلال العشرين يوما التالية (٢٤ شعبان ٦٤٧هـ - ١٤ رمضان / ٢ ديسمبر إلى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩) وصل الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، ليصبح بذلك فى مقابلة معسكر جديلة ، لا يفصله عنه والمنصورة أيضا إلا بحر أشموم ، وذلك بعد أن احتل فى طريقه بعد فارسكور كلا من شرمساح والبرمون ، يظاهره فى ذلك سفن أسطوله المتنوعة والعديدة التى وقفت فى النيل بإزاء المعسكر الصليبى .

وشرع لويس التاسع على الفور بعد العدة لعبور بحر أشموم أو البحر الصغير لدخول المعركة الحاسمة، ولم يكن هذا بالأمر اليسير، فطبوغرافية بحر أشموم كانت تؤكد عمق مجراه، وشدة الانحدار فى جانبيه، وسرعة تياره، وهذه كلها عوامل كان لابد من وضعها فى الحسبان إذا أراد الملك الفرنسى تأمين عبور قواته إلى الضفة الأخرى، فأصدر أوامره ببناء الجسر على بحر أشموم هذا، وزيادة فى تأمين هؤلاء أمر ببناء ساترين أفقيين أو سقيفتين تظلان هؤلاء العمال أثناء عملهم من وابل السهام أو المنجنيق الذى لابد أن يستخدمه المسلمون لوقف إقامة هذا الجسر، وعهد إلى جوسلين أمير كورنو Cornaut بالأشراف على آلات رمى المنجنيق التى أعدوها والتى بلغ عددها ثمانية عشر منجنيقا، كما أحاط معسكره بسور وخندق لحمايته من الناحية البرية وجعل من أحد إخوته واحدا يتولى نوبة الحراسة نهارا، بينما قامت مجموعة من الفرسان ، من بينهم المؤرخ جوانفيل الذى نقف منه على كل هذه المعلومات، بنوبة الحراسة الليلية. وهذا كله يوضح مدى الإصرار الذى كان لدى الصليبيين من أجل سرعة إنجاز هذا العمل، وبالتالى اللهفة على دخول المعركة الفاصلة منتهزين فرصة وفاة الملك الصالح، وما دار بخلدهم عما يمكن أن يتركه ذلك فى نفوس المصريين .

غير أن الجيش المصرى بوحداته المختلفة لم يتوقف عن إزعاج الصليبيين بهجماتهم الخاطفة المتلاحقة ؛ ففى اليوم الذى وصل فيه الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، هاجمت فرقة استطلاعية من الفرسان الجنود الصليبيين قبل أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الرحلة التى قطعوها ، مع أنه لم يقع بهذه القوات الغازية أضرار مادية ، إلا أن هذا الهجوم ترك أثرا سيئا من الناحية النفسية ، حيث انطبع فى نفوسهم أن المسألة ليست بالسهولة التى يتصوروها ولم يكد يمضى على ذلك أربعة أيام حتى قامت خيالة من الجيش المصرى بهجوم آخر فى ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م (١٨ رمضان ٦٤٧هـ) ، أى يوم عيد الميلاد عند المسيحيين اللاتين ، الصليبيين ، وفتكوا بجماعة من " التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين" ، على حد تعبير "جوانفيل". وتكررت مثل هذه الحوادث من أعمال "الإبرار" التى تقع خلف خطوط العدو، وتسبب له ارتباكا كبيرا، منها مثلا ما حدث فى أول أيام عيد

الفطر ، أول شوال ٦٤٧هـ / السابع من يناير ١٢٥٠م ، وبعد ذلك بأسبوعين فقط قامت القوات المصرية بمهاجمة المعسكر الصليبى ، ودارت بينهما معركة حامية، فقد فيها كل من الجانبين عددا من رجاله وشاركت البحرية المصرية أيضا فى هذه الهجمات ، ففى السابع من شوال ٦٤٧هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠م استولى رجال الأسطول المصرى على سفينة ضخمة من نوع " الشينى " الكبيرة ، وعليها مائتا جندى صليبى وقائدهم ، وفى يوم الخميس لثمان بقين من شوال ٦٤٧هـ ، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر ، واستظهر عليها المسلمون استظهارا عظيما بيناً ، على حد قول ابن واصل .

أما فيما يتعلق ببناء الجسر الذى حاول الصليبيون مده على بحر أشموم ليعبروا إليه حيث معسكر جديلة ثم المنصورة ، فقد قامت الإدارة الهندسية فى الجيش المصرى بالتعاون مع رجال المدفعية ، المنجنيق ، بإفساد كل الجهود التى قام بها الصليبيون فى هذا السبيل، فقد عمد المهندسون إلى حفر عدد كبير من الحفر المتلاصقة والعميقة على الضفة التى يسيطر عليها المصريون ، بحيث تغمرها المياه فى المجرى ، فيزداد هذا المجرى اتساعا أمام الصليبيين، ومن ثم بدا الأمر كما لو كان بحر أشموم يتسع كلما زاده الصليبيون ردما !! وقد عبر جوانفيل عن ذلك بكل الحسرة قائلا : " ورأى المسلمون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم ، لاتكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله، وذلك أننا كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا ، كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها " ، ويضيف جوانفيل قوله : " لقد أخطأ الملك وجميع بارونات فى أثناء بنائهم لهذا الجسر " .

هذا ما كان من أمر المهندسين والعمال المصريين فى الجيش ، أما ما كان من أمر رجال المدفعية فاهم اصلوا الصليبيين العاملين فى هذا الجسر وكذا القائمين على حراستهم، نارا حامية ، صبوها عليهم من منجنيقاتهم التى انتشرت على الضفة التى يسيطرون عليها، ورغم أن منجنيقات العدو الثمانية عشرة التى نصبوها فى ناحيتهم قامت بقذف المعسكر المصرى ، إلا أن تأثيرها لم يكن يدنو مطلقا مما أوقعته المنجنيقات المصرية بالصليبيين من خسائر، ولم تفلح السقيفة أو الأبراج التى أقاموها لحماية العاملين فى هذا الجسر ، ولعل أدق من يحدثنا عما فعلته المنجنيقات المصرية بالصليبيين هو جوانفيل نفسه ، لذا فإننا نترك له المجال هنا لنجده يقول : " ... وكانت النار الإغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ، ذات ذنب بقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد،

وكأنها طائر فى الجو ، تشع بنور يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ كأنه فى وضح النار. وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات فى تلك الليلـــة ، وأربـــع مرات بواسطة الأقواس المتحركة . وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائـــف النـــار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا .. " أيها الرب الســيد الحنان احفظ لى شعبى " وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على المكان القـــائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطئ ، فنظرت فـــإذا بفـــارس يدعـــى " أفليجوى " قادم نحوى ، وقال لى يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق جميعـــا، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيرا من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهيب كان يســـتهدف برجنا".

ويمضى جوانفيل قائلا: "... وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيم الأبراج وأخرج المسلمون آلاتهم فى وضح النهار ، بينما كانوا لا يجرؤن من قبل على اســتعمالها إلا ليلا، وأخذوا يواصلون رمينا بالنار الإغريقية . واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كثب مـــن الجسر الذى يعمل الجيش فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب إلى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى إلى احتراق الـــبرجين . واشتد حزن ملك صقلية (يقصد أخر لويس التاسع ، شارل كونت أنجو ، الذى أصبح فيمـــا بعد ملكا على صقلية من قبل البابوية) حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقى بنفسه إلى حيـــث تشتعل النيران عسى أن يطفئها ، وكان فى أشد الغيظ ... إذ لو استمروا فى الرمى حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة " .

أليس هذا بكاف على أن يقام دليلا على صدق الأمير فخر الديـــن ، وإخلاصـــه ، وجهده الكبير الذى بذله لتنظيم القوات المصرية حتى أضحت على هذا الوضع الذى وصفـــه مؤرخ صليبى كان شاهد عيان على تلك الأحداث ، ويزيد جوانفيل هذا الجهد الذى بذلـــه فخر الدين وضوحا حين يقول إن لويس أمر بإنشاء برج جديد عوضا عن البرجين المحترقين، وقدر ثمن الخشب الذى استخدم فى تشييده بعشرة آلاف دينار أو يزيد ، فلما تم بناؤه عـــهد إلى أخيه شارل كونت أنجو بحسن استخدامه حتى يعوض خسارة البرجين السابقين ، فتقـــدم بالبرج إلى حيث كان البرجان المحترقان، " فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم وصفـــوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عـــن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه ، أحضروا مقاليعهم وقذفـــوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله" .

هكذا نجد أن الأمير فخر الدين القائد العام للجيش المصرى ، مقدم العسكر ومدبر أمر المملكة الآن ، لم يدخر وسعا فى الإعداد للمعركة الحاسمة المتوقعة مع الصليبيين واتبع كل الوسائل الممكنة حتى لا يدع للصليبيين فرصة ينعمون بها أو فيها بالراحة داخل معسكرهم فى رأس جزيرة دمياط ، ففعلت القوات الخاصة التى دفع بها خلف خطوط العدو فعلها ، وقامت البحرية المصرية بدورها ، وأدى رجال الهندسة العسكرية واجبهم على خير وجه، ونصب ستة عشر منجنيقا فى مواجهة الثمانى عشرة التى أقامها الصليبيون ، فأصلت الآلات المصرية جنود لويس العاملين فى إقامة الجسر حمم نيرانها ، وأحرقت كل دفاعاتهم التى أعدوها لحماية أنفسهم وعبورهم بحر أشموم ، وتملكهم اليأس من إتمام هذا العمل . وكتب جوانفيل يقول : " لما رأى الملك ما جرى استدعى بارونات للمشاورة ، فأجتمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه ، نظرا لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدرا يكافئ ما يستطيع المسلمون حفره من ناحيتهم " . ويكفى أيضا فى صف فخر الدين أن نسجل عبارات رئيس نوبة الحراسة الليلية للبرجين الصليبيين ، عندما عاين ما يفعله الجيش المصرى بقيادة الأمير فخر الدين من معسكره فى جديلة ، قال : " أيها السادة ، إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا (وكان ذلك فى أول الأمر قبل احتراق البرجين) ، وبقينا حيث نحن ، فلابد أننا هالكون بالحريق ، وإذا تركنا أماكن دفاعنا هذه ، التى وكل إلينا حراستها ، فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا هذا البلاء سوى الرب ، لذا فإنى أنصحكم أن نحثوا على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو "مخلصنا" أن يقينا شر هذا البلاء".

ومن الجدير بالذكر أن الصليبين قطعوا المسافة من دمياط إلى رأس جزيرة دمياط فى ثلاثين يوما (٢٠ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر)، بينما أمضوا خمسين يوما فى مكان نزولهم (من ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ – ٨ فبراير ١٢٥٠) لا يستطيعون عبور بحر أشموم، ولاشك أن الجهود التى بذلها فخر الدين على النحو الذى رأينا كان لها أكبر الأثر فى هذا السبيل، بل لقد أثر عنه -فيما رواه جوانفيل- القول بأنه أقسم على مهاجمة المعسكر الصليبى وتحقيق النصر وتناول طعامه فى فسطاط الملك الفرنسى، يوم عيد ميلاد القديس سباستيان St. Sebastian.

غير أن شيئا نكرا جرى حدوثه أضاع سدى كل الجهود التى بذلها الجيش المصرى وقائدها لأمير فخر الدين، وذلك أن واحدا احتوت نفسه على الخيانه، تطوع ليدل الصليبين على مخاضة يعبرون من خلالها بحر أشمون ، ليأخذوا المسلمين على غرة مقابل خمسمائة دينار

يدفعونها له مقدما!! وتقع هذة المخاضة عند قرية سلمون التى تبعد عن مدينة المنصورة الحالية بحوالى ستة كيلو مترات. ولم يتردد الملك لويس التاسع لحظة واحدة فى قبول العرض ، رغم أن المخاضة لم تصلح فقط إلا لعبور الفرسان على ظهور خيولهم ، بينما يستحيل على المشاة اجتيازها ، ولكنه اهتبل هذة الفرصة التى جاءت تسعى على غير موعد، ولا مانع مـــن أن يتحقق عن طريق الخيانة ما فشل الصليبيون فى إنجازه خلال خمسين يوما مـــن المناوشـــات اصطلوا فيها بنيران الجيش المصرى.

هكذا لم يكن هجوم الصليبيين الذى تم على هذا النحو المفاجئ ، ولا خروج فخـــر الدين دهشا غير مستعد ، إذا أخذنا برواية ابن واصل، عن تقصير من جانب مقدم العسكر، أو تراخ فى أداء واجباته العسكرية، بل كانت نتيجة لخيانة " بعض من لا دين لهم" على حد قول مؤرخنا المقريزى [١٤٠]، ومن ثم فإنه لما كان الأمير فخر الدين رجلا " عالى الهمة " فلـــم يكن يتوقع أن تأتيه الكارثة من الداخل، نعنى الخيانة التى تسببت فى عبور الصليبيين لبحـــر أشمون عند مخاضة سلمون ، وهجومهم المباغت على المنصورة [١٤١]، ومهما يكن من أمـــر، فالذى يعنينا أن فخر الدين ظل حتى اللحظة الأخيرة، وقد بلغ العام السادس والستين مـــن عمره ، مقاتلا فى قلب ميدان المعركة ، وظل ثابتا طلبا للشهادة ، بينما فر عنه طلبا للنجـــاة كل من حوله وخاصة مماليكه الذين تركوه وانصرفوا إلى داره فنهبوا كـــل محتوياتهـــا . ولا نملك إلا هذا التعليق الذى يجمع بين السخرية والأسى لعدم الوفاء ، والذى جرى به قلـــم سبط بن الجوزى [١٤٢]، قال: "... وخربت داره كأنها لم تكن بالأمس ، خربهـــا الأمـــراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سبعين أمير كـــانوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة، وما نفعه تربية مماليكه وإحسانه إليهم "!!

والآن وبعد عرض القضية من جميع جوانبها على هذا النحو آن لنا أن نقدم شهادة الحق

---

[١٤٠] الخطط ، ج١، ص ٢٢١.

[١٤١] لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع كتابنا " الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين " ، تحت الطبع .

[١٤٢] مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٧٧ .

على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان بعيدا كل البعد عن كل ما تضمنته صحيفة الدعوى المقامة ضده من اتهامات ساقها المؤرخين القدامى والمحدثين، وهذه يدلى به السلطان نفسه. فابن واصل ملأ الدنيا فى كتابة صحيحا مؤكدا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو كان موليا أحدا من بعده ، فإنه لم يكن ليعدل أبدا عن وزيره حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، لأنه كان ساعده الأيمن فى كل أموره ، وموضع ثقته المطلقة ، ولأنه لم يكن يثق كل الثقة فى الأمير فخر الدين بحيث يجعله يقدم على اختياره خلفا له ، إضافة إلى كراهية الصالح لأبنه المعظم تورانشاه . ومع أن المقريزى يتفق مع ابن واصل فى كثير مما يقوله عن الأمير فخر الدين حتى يكاد يورد فى بعض المواضع عباراته نفسها ، إلا أنه هنا يخرج عن هذه القاعدة ويؤكد أن الملك الصالح أوصى قبل موته أن يخلفه ابنه تورانشاه ، يقول المقريزى[١٤٤] ما نصه : "فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، وحلف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى، ومن يثق به " وعبارات المقريزى تفيد أمرين أولهما أن الصالح أوصى لأبنه تورانشاه قبل موته ، وثانيهما أنه صدق على ذلك بأخبار مقدم عسكره فخر الدين ، وطواشيه محسن ، ومن يثق به ، ولم يكن من بينهم بالطبع حسام الدين، وإلا ذكره المقريزى ولم يكن ليغفل عنه من قبل صديقه ابن واصل . أما التعبير الأخير الذى ورد فى عبارة المقريزى ، ونعنى به قوله "ومن يثق به"، فإنه يضيف بعدا جديدا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الأمير فخر الدين كان على رأس هؤلاء الذين يثق بهم الملك الصالح ، بحيث أخذ عليه موثقا وعهدا أن يحفظ عرش الديار المصرية حتى يؤوب تورانشاه . وهل فعل فخر الدين غير ذلك ؟

وبذكاء تميز به المقريزى المؤرخ ، أشار إلى حديث ابن واصل فى هذا الشأن ، ولم يأت به خبرا مؤكدا كما جرت عباراته السابقة عن وصية الصالح لأبنه ، بل أورده ضمن دائرة الأقوال التى لا دليل عليها ، ومن ثم فإنه جاء بحديث ابن واصل وقدمه بما يفيد عدم موافقته عليه ، وهذا نص المقريزى ، " وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين ابن أبى على : إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه "[١٤٥] . وهذا بنصه قول ابن واصل.

---

[١٤٤] – السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ ، ويقول ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٧٣ ، " قام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وجمع الأمراء ، وقال : " إن السلطان رسم أن تحلفوا لولده غياث الدين تورانشاه " ، وقارن الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٤٠ .

[١٤٥] – المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٤٢ .

أما الشهادة التى يدلى بها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وحجبناها إلى آخر جلسات المحاكمة لتكون الحجة الدامغة ضد كل من اتهم فخر الدين بن الشيخ فى شرفه العسكرى ووطنيته ، فهى عبارة عن الوصية التى كتبها الصالح لابنه تورانشاه ، والتى يعهد فيها إليه بالملك ، ويضمنها كل خبرته وخلاصة تجاربه وصادق نصحه ، ليكون هذا كله دستورا لـ "الولد" فى ممارسة مهام منصبه[١٤٦] . وفى الوقت نفسه جاءت بيانا ناصعا ودليلا صادقا على تبرئة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من كل ما نسب إليه . وما علينا إلا أن نقرأ معا أمام محكمة التاريخ بعضا مما جرى به قلم السلطان .

يقول الصالح : " ... والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أُقدمّ سواه ، فأكرمه واحترمه كما تحترمنى ، واجعله عندك كالوالد ، واسمع قوله ورأيه ، ولا تخالفه ، واجعل له من العدة مائتى فارس " . وهذا فى حد ذاته اعتراف صريح من الملك الصالح نجم الدين أيوب بأنه ليس عنده فى دولته من يحتل المقام الأول بعده مباشرة إلا الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهذا ينفى تماما ما يردده ابن واصل من القول بأن " السلطان الملك الصالح لا يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على "[١٤٧] . وفى كلمات الصالح هذه أمر لولده بستة أمور واجبة التنفيذ ، تخص الأمير فخر الدين ، إعلاء قدره وتكريمه ، واحترامه بما يليق بمكانته ، وإنزاله منزلة الوالد ، والنزول عند كل أقواله وآرائه ، وعدم مخالفة مشورته ونصحه ، وتخصيص مائتى فارس له لرفعة منزلته .

ويضيف الصالح قائلا لولده وهو يعظه " اتفق أنت والأخ فخر الدين ... واحفظ يا ولدى ما أقوله لك (وكان قد ذكر له جملة نصائح تخص مختلف أمور الدولة سياسية ودبلوماسيا وعسكريا) ، فهذا جميعه ما عرفنى به إلا الأخ فخر الدين " ، ويختتم وصيته بقوله " فهذه وصيتى إليك ، فأعمل بما فيها ولا تخالف وصيتى ، وكل يوم طالعها ، وقف[١٤٨] عليها ، ولا تعمل شيئا[١٤٩] دون أن تشاور الأخ فخر الدين ، والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى " .

والوصية تمتلئ فى مواضع متعددة بضرورة الأخذ برأى " الأخ فخر الدين " فى أمور كذا وكذا ، مثل ما يجب عمله تجاه بعض زعماء جماعة القَيْمُرِية ، (وهم طائفة من

---

[١٤٦] – النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ، ٢٩ ص ٣٤١ – ٣٥٢ .
[١٤٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .
[١٤٨] – فى الأصل " واقف "
[١٤٩] – فى الأصل " شئ "

الأكراد)، وزعماء المماليك الصالحية الذين أوصاه بهـــم خـــيرا ، والمشـــكلات المتعلقـــة بالأسطول، حيث أن "لأخ الدين عرفنى بهذه الأحوال جميعها ، فاسمع ما يقوله لك " !!

والوصية إذن تقليد الملك للمعظم تورانشاه من قبل أبيه الصالح نجم الدين أيـــوب ، وتعيين لمستشاره وقائد جيشه، والرجل المقدم فى دولته ، ومن لا يقدم غيره، نعـــنى "الأخ" فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، الذى خصه بأسرار دولته ، إذ يقول لولده : " وقد عينـت فى ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم ، تعطى لكل واحد منهم كـــوس (صنوج من نحاس يدق بها فى المواكب وهى من شعارات السلطنة والإمارة) ، وعلمـــا[١٥٠] ، وتحسن إليهم".

ولو كان الأمر حقا كما ردد ابن واصل مرارا وتكرارا فى كتابه ، من ثقة الصـــالح التى لا حدود لها فى الأمير حسام الدين ، وفقدانه إياها فى الأمير فخر الدين لكان المنطـــق يحتم عليه أن يجعل من حسام الدين ، وليس فخر الدين ، مستشارا لابنه تورانشـــاه حالـــة اعتلائه عرش السلطنة ، خاصة وأن حسام الدين كان أتابكا لتورانشاه عندما كان فى حصن كيفا كما علمنا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يختر الصالح أحدا سوى ابن الشـــيخ ليكون عضد ولده كما كان عضده هو شخصيا فى سنى حكمه .

والسلطان الصالح يترل فخر الدين مترله أخيه ، فلا يسميه فى وصيته إلا بـــ "الأخ"، ولم يستخدم هذا اللفظ مع أحد غيره ممن وردت أسماؤهم فى الوصية على كثرتهم ، ومنـــهم نفر من أهله وأقاربه ، ولم يستخدم مع هذا اللفظ لقب الأمير أو مقدم العسكر أو الأتابك ، دليلا على مدى قرب فخر الدين من الصالح ومودته له واحترامه إياه ، بل والثقة المطلقة التى أولاها إياه على العكس مما يقوله ابن واصل تماما .

وقد جاء ذكر حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، صديق ابن واصل ، فى هـــذه الوصية ، فإذا ما قرأنا ما كتب عنه علمنا يقينا أن كل ما قاله مؤرخنا عن انفـــراد حســـام الدين بثقة الصالح ، وأنه لم يكن ليولى أحد من بعده غيره لو أوصى ، مجرد آمال داعبت ابن واصل من أجل صديق عمره ، وصاحب الفضل فى انزاله مترلا كريما عند قدومه إلى القاهرة من الشام . وها قد أوصى الصالح ، ولكنه أوصى بالشخصيتين الكريهتين لابن واصـــل !! تورانشاه وفخر الدين !! أما ما يخص الحسام فقد جاء ذكره فى عداد الأمراء غيره ؛ يقـــول الصالح : " الولد (يعنى تورانشاه) يتوصى بالخدام ، محسن (يقصد الطواشى جمـــال ديـــن

---

[١٥٠] - فى الأصل " علم "

محسن) ورشيد والخدام المقدمين ، لا تغيرهم ، فما قدمت أحدا[١٥١] من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته ، وأستاذ الدار وأمين جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحسام . لا تغيرهم فأنى اعتمد عليهم فى جميع أمورى ... والحسام يكون بمفرده لا حل ولا ربط " !! وهكذا ذكر حسام الدين فى عداد أعوان السلطان الذين يعتمد عليهم ، بل آخرهم بعد الطواشى محسن ورشيد والخدام المقدمين ، والسلطان يعرف جيدا أن وزيره نائب السلطنة لا يعرف الحل والربط فى الأمور بمفرده ! فكيف يمكن أن يجعل منه الصالح – لو أوصى كما يقول ابن واصل – سيدا على مصر ؟!

وليس ببعيد أن يحاج أحد بالقول أن الوصية كتبت قبل أن ينسحب الأمير فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، ومن ثم فإن الصالح لم يكن يعلم بعدم ولاء مقدم عسكره عندما كتب وصيته غير أن ذلك قول واه يسهل دحضه دون عناء من خلال أمرين ، أولهما يتفق مع المنطق وطبيعة الأمور ، وهو أنه كان بمقدور الصالح أن يمزق هذه الوصية تمزيقا ، أو أن ينسخ بيديه محوا كل ما كتبته يده عن فخر الدين ، أو أن يضيف فى أضعف الأحوال عبارة فى بداية وصيته أو نهايتها يخبر ولده فيها بخيانة فخر الدين وموقفه من الصليبيين عند جيزة دمياط ، أما ثانى الأمرين فهو الدليل العملى الدامغ من داخل هذه الوثيقة نفسها ، فالوصية تضمنت فى بدايتها كل الأحداث التى وقعت عند دمياط ، وما كان من أمر الصليبيين هناك ، أى احتلالها بعد أن فر من كان بها من الكنانية !! بل وتتضمن أيضا شهادة البراءة الكاملة للأمير فخر الدين على النحو الذى عرضنا له من قبل .

بقى أن نقول هنا ، حتى نغلق ملف قضية الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، القائد العام للجيش المصرى ، أو بتعبير زمانه أتابك العسكر ، والذى اتضحت لنا بداءته –على الأقل من وجهة نظرنا– مما نسب إليه من تركه لجيزة دمياط وانسحابه إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه، وعدم ولائه لسيده ، وطمعه فى السلطنة، إن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى أدلى بشهادته أمام محكمة التاريخ مبرئا "الأخ" فخر الدين، بعد كل ما قدمناه لتنفيذ ما جاء بصحيفة الدعوى المرفوعة ضده، هو الذى كتب وصيته هذه بخط يده ، إذ يقول: "وكتبت هذه الوصية و لم يطلع عليها أحد، لئلا تضيق صدورهم ، وكتبتها فى مدة طويلة". والنويرى يؤكد ذلك عند تقديمه للوصية حين يقول : " وكان الملك الصالح فى مرض موته ،

---

[١٥١] – فى الأصل " احد " .

قد كتب إلى ولده الملك المعظم هذا كتابا أسند فيه المُلك إليه ، واشتمل كتابه على جملة من الوصايا ، وقد وقفت على الكتاب المذكور، وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته "[١٥٢] .

أما من يقصدهم السلطان الملك الصالح بقوله " لئلا تضيق صدورهم " فهم جملة من الأمراء سماهم ، وطلب من ولده إبعادهم عن مناصبهم وعدم الاعتماد عليهم ، لأنه لن يستطيع التعامل معهم ، بعد أن كشف عن خبيئة نفوسهم وخبثهم وما تكنه صدورهم من السوء ، ويتبع كل واحد من هؤلاء بالقول بأن الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، يعرف كل هذه الأمور عن هؤلاء جميعا ، وعلى المعظم أن يأخذ برأيه حيالهم[١٥٣] .

أما قول الصالح " وكتبته (أى الوصية) فى مدة طويلة " فلابد أن تكون هذه المدة هى الواقعة بين احتلال الحملة الصليبية السابعة لدمياط فى السادس من يونيه ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ، وموته فى الثالث والعشرين من نوفمبر من العام نفسه (ليلة النصف من شعبان)، وهى فترة تمتد إلى خمسة شهور ونصف تقريبا ، وهى الفترة التى مرض فيها مرض الموت كما يخبرنا ابن واصل وابن العبرى والنويرى وغيرهم ، والنويرى يذكر ذلك صراحة فى عبارته التى سقناها منذ قليل حين قال: " وكان الملك الصالح فى مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم ... " . وهذا يفسر لنا من ناحية أخرى استبقاء السلطان الملك الصالح لقائد جيشه إلى جواره ، بعد أن شعر بدنو أجله ، للإشراف على تنظيم معسكر المنصورة التى انتقل إليها السلطان من أشموم طناح، وتقويتها وتحصينها ، ومباشرة إدارة السلطنة فى تلك الفترة العصيبة التى تمر بها البلاد ، من مرض السلطانه مرض الموت ، واحتلال الصليبيين لجزء من الديار المصرية ، ولسنا فى حاجة الآن إلى القول إن كل هذا يكشف عن مدى الثقة التى كان يتمتع بها "الأخ" فخر الدين عند السلطان، كما أكدت على ذلك كل كلمات وصيته . ولعل الملك الصالح كان يوقن تماما أن منافسى وحساد فخر الدين سوف يسلقونه

---

[١٥٢] - النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩ ، ص ٣٤٠ .

[١٥٣] - جاء فى الوصية : " القيمرية " ، الولد (يعنى توارنشاه) لا يسمع كلام بعضهم فى بعض ، وناصر الدين عنده كذب وخبث ، وما باطنه جيد ، وقد عرفت الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) الرسل الذين مسكوا من دمشق الى حلب من عنده ، والحسام (يعنى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى) يكون بمفرده لا حل ولا ربط ... وناصر الدين أرحل لا يخرج مع عسكر ، وسيف الدين القيمرى تعمل معه ما يقرر مع الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يكون مقدم العسكر فى دمشق ، وابن يغمور (جمال الدين) مشد (الناظر فى حسابات الدواوين) ، وناصر الدين على المظالم ، فابن يغمور يصلح يكون مشد ووالى وجابى الأموال ، ولا يصلح يكون مقدم عسكر ، ولا يصلح لجندية ، ولا تؤمن له كل الأمر ، بل تمشى (هكذا) به الحال فى مكان مدة ، ثم ينقل الى غيره ، وهو بالكتاب أليق ، وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجنديةن ... ، فالأخ فخر لدين (بن شيخ الشيوخ) يعرف ما جرى منه ، فهو نحس مفسد محسحس ، وقد عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه فى دميط وغير دمياط ، فما يصلح لصالحة متولى ديوان الأحباس (الأوقاف) اصرفه وولى (كذا) ابن النحوى ... وطرائق ابن الحباب غير صالحة ، والوكيل اصرفه " . إضافة الى عدد من أهل الذمة العاملين فى ديوان الجيش ، يرد إليهم الصالح الكثير من الفساد ؛ وأناس غير هؤلاء وأولئك ، راجع النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

بأقلام وألسنة حداد ، فقرن فى أول وصيته بين ما حدث فى دمياط ونزاهة قـــائد جيشـــه وبراءته من أى اتهام .

ولا بد أن يكون السلطان قد سلم هذه الوصية لواحد من أقرب المحيطين بـــه وهـــم ثلاثة ؛ زوجه شجر الدر ، ومقدم عسكره الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن ، تسليمها إلى ولده تورانشاه عند قدومه إلى مصر ، ويرجع أنه أعطاها لزوجه شجر الـــدر باعتبارها أقدر الثلاثة على حفظها وتسليمها لخليفته على العرش ، حيث كان الجميع مـــن الأمراء ومماليك السلطان يجلونها ويعرفون لها قدرها ، وقد بدا ذلك واضحا فى الفترة الـــتى أعقبت وفاة الملك الصالح ، ولم يكن أحد من هؤلاء جميعا يجرؤ على المساس بمقتنياتهـــا[١٥٤] . وليس من المستبعد أيضا أن يكون الصالح قد أومأ إليها شفاهة باستدعاء ابنه تورانشاه مـــن حصن كيفا ، بعد أن أوصى به ، كما أخبرنا المقريزى ، وبعد أن قلده رسميا فى الوصية الـتى لم يُطلع السلطان عليها أحدا منهم ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد : " يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين إلى الطواشى جمال الدين محسن، وهو لم يعرض له كثيرا فى وصيته كما فعـــل مع الأمير فخر الدين ، ولا كانت منزلته تؤهله لثقة كبار الأمراء فيه . ولا كان من المعقـــول أيضا أن يودعها لدى "الأخ" فخر الدين ، لعلمه أنه مقدم عسكره ، وأن الحرب بينه وبـــين الصليبيين دائرة ، وأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وأنه لا يأمن عليها من العبث بـــأيدى مماليكه بعد وفاته ، وكأن الصالح كان يقرأ فى صحف الغيب عندما استشعر ذلك ، فقـــد رأينا ما حل بدار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من النهب والتخريـــب علـــى أيـــدى مماليكه ، لقد جاء هؤلاء إلى داره " فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت أموالـــه وخيله ، وأخذ الجولانى (نسبة إلى الجولان فى سوريا) قدور حمامه ، والدميـــاطى أبـــواب داره"[١٥٥] وهكذا لم يكن آمن على وصيته من زوجه أم خليل شجر الدر .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا فى المقام الأول ، أن هذه الوصية جاءت شـــهادة حق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر المصرى ، فى عهد الســـلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والدبلوماسى الماهر فى أيام أبيه الملك الكامل محمـــد ، قـــد أدى واجبه كاملا فى خدمة بنى أيوب ، وظل على ولائـــه لهـــم ، وإخلاصـــه فى عملـــه

---

[١٥٤] - تضمنت الوصية ما يفيد هذا الرأى ، إذ يقول الملك الصالح : " يا ولدى الوصية بأم خليل (وهو اللقب الذى كانت تكنى به شـــجر الدر) فلها على من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، إرع (فى الأصل أرعى) جانبها واكرمها واحترمها وارفع منزلتها ، فهى عندى بمنزلة عظيمة ، وكنت طيب القلب بصحبتها ، آمنا على نفسى من جهتها ، فأجعلها لك مثل الوالدة ، واجتهد فى اتصال الراحة إليها ... ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها " ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـــ٢٩ ، ص٣٤١ – ٣٤٢ .

[١٥٥] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـــ٢٩ ، ص ٣٣٩ .

العسكرى، حتى آخر أيام عمره ، وهى فى الوقت نفسه ، أعنى الوصية ، دليل بالغ الدلالة على أن الاتهامات التى سيقت ضده من ابن واصل ومن سار على نهجه من المؤرخين القدامى والمحدثين ليس لها من الصحة نصيب .